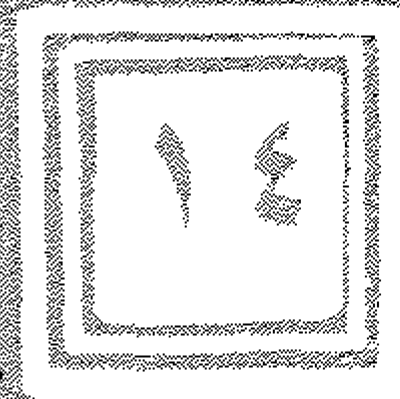


شباب محمد صلى الله عليه وسلم

الإسلام واتجاهات الفكر المعاصر

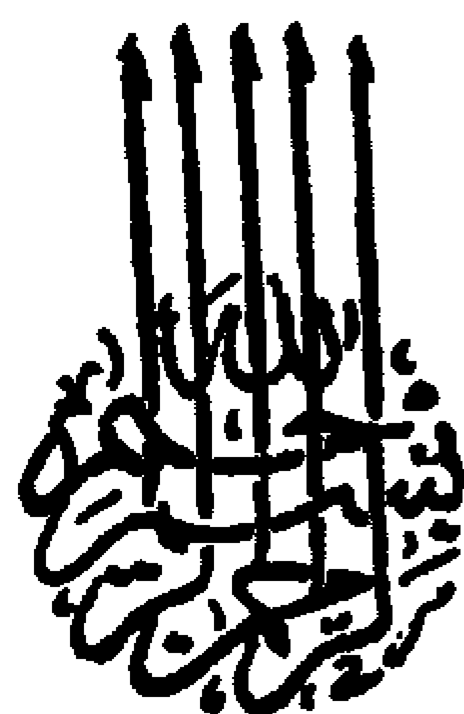
د. يحيى هاشم حسن فرغل

دار الاعتصام

شباب محمد صلى الله عليه وسلم
رسائل الدعوة

الإسلام
واتجاهات الفكر المعاصر

د. يحيى هاشم حسن فرغل



تصدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد .. فالحرب ضد الاسلام قائمة على قدم وساق . وهى حرب دائرة فى مختلف الميادين ، وبمختلف الأسلحة والوسائل والأساليب . فهى تتخذ من وسائل الاعلام سلاحا لسمومها القاتلة .. وتتخذ من الاستعمار العسكرى وسيلة للقضاء على الشعوب الاسلامية ، وفرض الاحتلال الثقافى والخلقى الأجنبى .. وتتخذ من المدارس التبشيرية ، والمناهج العلمانية وسيلة لتشكيك المسلمين فى دينهم .. وتتخذ من المؤسسات الاقتصادية الأجنبية والربوية ، وسيلة للقضاء على نظم الاقتصاد الاسلامى .. وتتخذ أسلوب العلم لنشر الالحاد ، والقضاء على عقيدة الايمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر .. الى غير ذلك من الأساليب والوسائل ..

والدعـــوة الاسلامية لن تؤتى ثمارها ، الا اذا قام دعاة الاسلام المتخصصون فى كل ميدان ، لمقابلة هذه الحـــروب كلها ، فى هذه الميادين .

فنحن فى حاجة الى اعداد المسلمين للجهاد ، الذى شرعه الله عز وجل ، دفاعا عن ديننا واوطاننا .

ونحن فى حاجة الى مدارس اسلامية على أعلى مستوى ، وأحسن طراز ، لتعليم وتربية أبنائنا على النهج الاسلامى .

ونحن فى حاجـــة الى مؤسسات اقتصادية ، تقوم على أساس تعـــاليم الاســـلام ، لتقـــاوم وتمنع خطـــر الاحتلال الاقتصادى الأجنبى ، وخاصة التى تقوم على النظام الربوى .

ونحن فى حاجة الى أجهزة أعلام اسلامى فى الصحافة والاذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما ، تستطيع أن تؤثر فى النـــاس ، وتدعوهم الى آداب الاسلام وتعاليمه ، وتنشر تاريخ الاسلام العريق ، وتقف فى وجه الحركات الاستعمارية والتبشيرية والالحادية والصليبية والصهيونية والشيوعية ..

ونحن فى حاجة أيضا . الى علماء يمحصون نظريات الملحدين والوجوديين والعلمانيين .. هذه النظـــريات التى لبست ثوب العلم ، لتخدع الناس ، وتضلهم عن طريق الله وتخرجهم من النور الى الظلمات .

وقد حمل لواء الالحاد — باسم العلم — كثير من الملحدين .. منهم أوجست كونت ، ولينين ، وماركس ، ووالاس ، وداروين .. وغيرهم كثيرون .

وكان لابد أن يتصدى لهؤلاء رجال من علماء الاسلام ، يفضحون ما وقع فيه الملحدون فى نظرياتهم العلمية الالحادية ، من أخطاء ومتناقضات وزيف .

وممن تصدى للرد على هذا الفكر الالحادى المعاصر ، أساتذة أجلاء ، وعلماء أفاضل . منهم الدكتور محمد عبد الله دراز ، والدكتور يوسف عز الدين عيسى ، وعباس العقاد ، ووحيد خان ، والدكتور يحيى هاشم فرغل ، كاتب هذه الرسالة التى نقدمها اليوم ، فى هذه السلسلة من رسائلنا ، المباركة ان شاء الله .

* * *

وفى هذه الرسالة تناول الدكتور يحيى هاشم قضية العلم والدين ، وقضية الفلسفة الوضعية ، ومذهب التطور الحيوى ، ونقد نظرية التطور .

وقد بين فضيلته فى فصل العلم والدين :

أولا : العلاقة بين الغيبى والمادى .. وكيف أن العلم المادى نفسه يقوم على أمور غيبية ، لا تقاس بمقاييس

المادة . وانما يفترضها العلم أصلا ويسلم بها دون أن يقــوم الدليل المادى عليها .

ثانيا : العــلاقة بين النسبى والمطلق . فاوضح أن العلم الانسانى ، علم نسبى . وما دام علم الانسان نسبيا ، فلا يملك الاعتراض على الوحى ، ولا أن يخوض فى المطلق .

ثالثا : العــلاقة بين حتمية القانون والارادة الالهية . وفى هــذا الفصل أوضح كيف أن العلم عجــز تماما أن يلائم بين قاعدة حتمية القانون ، وبين الخوارق التى يظهرها الله بين الحين والآخر ، تذكيرا للانسان بمصدر الوجود والقوانين ، وهو الله سبحانه وتعالى .

رابعا : قضية العــلاقة بين العلم المــادى والالحاد . وفيه أوضح كيف ان العلم عجز تماما عن اثبات الالحاد .. عجز عن أن يقــدم دليلا ماديا ينفى به أن هناك الها وملائكة وجنــــة ونارا .

ثم تناول الدكتور يحيى هاشم فى الفصــل الثــانى ، الفلسفة الوضعية التى حمــل لواءها أوجست كونت ، والتى ادعى فيها أن حتمية التطور التاريخى ، ستنتهى الى انتصــار الفكر الوضعى ، وأن علم الاجتمــاع سوف يشهــد مصرع التفكير الميتافيزيقى واللاهوتى . وقد أوضح الدكتور يحيى

هاشم خطا هذه النظرية ، وكيف أنه لا توجد امارة واحـدة تشير الى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الانســـان .

ثم تنـاول المؤلف بعـد ذلك مناقشة مذهب التطـور الحيوى ، وأبرز دعاتها الملحد المعروف داروين ، الذى هدف بنظريته الى نفى فكرة الخلق ، ووجود خالق لهذا الكون . وقد تصدى المؤلف لرأى داروين ، وبين أخطاء هـذا المذهب من الناحية العلمية ، ثم بين فساد هذه النظرية ، ســواء صحت نظرية التطور أم لم تصح ، وذلك بالأدلة العلمية والواقعيـــة ..

ولا شك أننا فى حاجة الى هذه الدراسات التى قام بهـا الدكتور يحيى هاشم ، والتى أعطاها كثيرا من اهتمامه ووقتـه وعلمه . وهــذه الرسالة ، توضح هذا الجهد الطيب الذى بذله الدكتور المؤلف ، فى دراسة كتب الفكر الالحادى المعـاصر ، وفى الرد عليها ، وفى تدريسها لطلابه فى كلية أصـول الدين ، وكلية الدعوة الاسلامية ، وفى معهد اعداد الدعاة .. هـذا المعهد الذى أنشأته جمعيات شباب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والعشيرة المحمدية ، واحياء التراث الاسلامى ، وابن عطاء الله السكندرى .

وهــذه الرسالة التى نقدمها اليوم هى المواد العلمية

للمحاضرات التى القاها فضيلة المؤلف على طلابه ، فى منهج دراسة التيارات الفكرية المعاصرة ، وعــــلاقتها بالعقيدة الاســـــلامية .

ويهــذه الرسالة نكون قد قدمنا زادا للدعاة ، يمكنهم من التصدى لتيارات الفكر الالحادى المعاصر فى هذا الميدان ، والرد على هذه المذاهب الهدامة ، وبيان ما فيها من أخطــاء وزيف ومتناقضات .

جــزى الله الدكتور يحيى هاشم خير الجزاء ، عما بذل صبر ومثابرة من أجــل نصرة دين الله ، والدفاع عن العقيدة الاسلامية ، فى ميــدان من أخطر الميادين التى يحارب فيها الالحاد ، الاسلام وعقيدة الايمان ، باسم العلم .

ونرجو أن تكون هذه الابحاث نافعة بتوفيق الله تعالى ، والله الهادى الى سواء السبيل .

محمد عطيـــة خميس
رئيس شباب سيدنا محمد
صلى الله عليــــه وسلم

* * *

بين العلم والدين

من المسلم به أن العصر الحديث هو عصر ازدهار العلم التجريبى .

وبالرغم من أنه قد تقرر لهذا العلم مجاله الخاص الذى لا يتعارض فيه مع الدين « الاسلام » فانه لا تزال هناك بعض المواقف الالحادية التى يبدو فى الظاهر أنها تستند الى العلم التجريبى ، وفى تقديرى أن هذه المواقف تنبع من سوء الفهم لبعض القضايا الأساسية . واهم هذه القضايا فى رايى اربع :

١ ـ قضية العلاقة بين « الغيبى » و « المادى » .

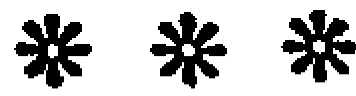
٢ ـ قضية العلاقة بين « النسبى » و « المطلق » .

٣ ـ قضية العلاقة بين « حتمية القانون » و « ارادة الله » .

٤ ـ قضية العلاقة بين العلم المادى والالحاد .

اولا : العلاقة بين الغيبي والمادى :

فضيلة المـــادة عند الماديين أنها تقوم على الحقائق والوقائع ، لا على الظنون والأوهام . فهى عندهم حقيقـــة الحقائق الثابتة التى لا يعتريها الشك لأنها محسوسة ملموسة محصورة فى مكان محـــدد : يخبط أحدهم على المائدة بيـــده أو يضرب على الأرض بقدمه ، ويقول لمـــن يجادله : هـــذه هى الحقيقة التى ألمسها بيدى وقـــدمى ، أو أراها بعينى ، وأسمعها بأذنى .. وليست ما تخبطون فيـــه مـــن الظنـــون والأوهـــــام .



١ ــ يقول الأستاذ عباس العقاد

ثم تحدثت فى السنوات الخمس الأخيرة من القرن التاسع عشر حوادث علمية غيرت كل صورة من صور المادة عرفها الأقدمـــــون .

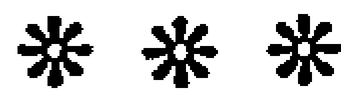
فقد عـــرف الكيميون قبـــل ذلك أن عناصر المادة أكثر من أربعة ، وأنها ليست محصورة فى النار والتراب والهـــــواء والمـــــاء .

ثم تقـــدمت معرفتهم بالمـــادة حتى أفلت من المـــادة كل

شيء ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل في الثبوت والحقيقة .

فاللون من الشعـــاع ، والشعاع هـــزات فى الأثير . والوزن جاذبيـــة ، والجاذبية فرض من الفـــروض . والجرم نفسه متـــوقف على الشحنة الكهربائية ، وعلى سرعة الجسم فى الحركة ونصيبه من الحرارة .

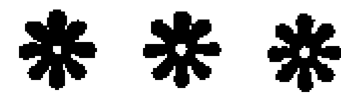
والحرارة ما هى ؟ حركة . والحركة فى أى شيء ؟ فى الأثير . والأثير ما هو ؟ فضاء . أو كالفضاء ، وكل وصف أطلقته على الفضـــاء فهو بعـــد ذلك مطابق لأوصاف الأثير . حتى الصلابة التى تصدم الحس أصبحت درجة من درجات القوة تقاس بالحساب ، ويعلم الحاسب أنه حساب قابل للخطأ والاختـــلال .



فهذه الصخرة القوية صلبة جامدة ، يضربها الضارب بيده فترده ، فيقول : نعم هذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها . فماذا لو كانت يده أقـــوى ألف مرة من يد الانســـان القـــوى بالعقـــل والعصب ؟ ان حقيقة الصخرة تفقد تحت يده برهانها فلا يحسه ، أو يحسه ولا يتحـــدث عنه كما يتحدث عـــن الحقـــائق ..

وتقدم العلم بالكهرباء والذرة مرة أخرى فاذا المـــادة كلها كهارب وذات . واذا بالذرات تنفلـــق فتنطلق شعاعـــا

كشعاع النور . هل هذاالشعاع موجات ؟ او هو جزئيات ؟ قل هـــذا او قل ذلك فهـــذا وذاك فى ميزان « التجـــربة » ســـــــواء ......) .



٢ ـ ويوضح برتراند رسل كيف انه توجد وراء الادراكات الحسية حقائق علمية ، مخالفـــة لها . يقول : (افترض مثـــلا اننى ارى كرسيا .. ان الحس المشترك يفترض ان الكرسى الذى ادركه اداكا حسيا سيظل موجودا حين أتوقف عـــن اداكه باغلاق عينى مثلا ...

وعلم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء فيما بينهما يؤكدان لى أن ما هو قائم هناك مستقلا عن ابصارى شىء لا يشبهـــه مطلقا ما تصورته ، بل هو رقصة جنونية ، ترقصها بلايين الكهربات تحت تأثير بلايين التحولات الكمية ، وعلاقتى بهـــذا الشىء غير مباشرة ولا تتأتى معرفتها الا بالاستنتاج ..) .

ثم يقول : (هذه النتيجة توجب أن نميز بين العالم المادى لعلم الطبيعة والعالم المتمثل فى جبراتنا اليومية ..) .

هـــذه ناحية ، ومن ناحية ثانية : يبين رسل من هذه التجربة أن العالم المادى لعلم الطبيعة وان كان مستقلا عـــن

حياتنا العقلية الا انه (ربما كان غير موجود ، اذ يكون غير موجود ان كنت احلم وربما لم يكن موجودا حتى وانا متيقظ ، اذ كانت هنــاك مهاو للخطأ فى بعض انواع الاستنتاج أنا معرض لها وان لم يكن عليها دليل ..) .

وان العالم المادى لخبرتنا اليومية ، هو (جزء من حياتى العقلية لا قيــام له اكثر من قيام العــالم الذى أراه فى الأحــــلام) .

ومن ناحية ثالثــة : يتساءل رسل : ماذا نعنى عندما نقول : ان هذا هو كرسى الأمس بعينه ؟ .

ان علم الطبيعة القديم يرى فى هذه العبارة معنى أنه لا يتكون من الجزئيات ذاتها .

وان هذا القول كان من الممكن الاحتفاظ به ، حتى فى ظل اكتشاف تكون الذرة من عــدد معــين من الكهيربات والبروتونات ، ولكن لم يعــد الأمر كذلك بعد أن تبين أن كل ما نعلمه عن الذرة هو (انهــا كم من الطاقة ، تخضع لمختلف التقلبات المفاجئة . ولا سبيل الى معرفة شيء الا عن هــذه التقلبات ، اذ لا اشعــاع للطاقة دون حــدوث التقلبات ، ولا سبيل لحــواسنا أن تتأثر بالطاقة الا حــين اشعاعهــا ، ولا سبيــل الى معرفة ما يحــدث الا حين تتأثر حواسنا . . .

فالآن وجب علينـــا أن نعترف بالجهـــل التام المطلق الذى لا سبيل لاستئصاله أبد الدهر بما تفعله الذرة فى لحظاتهـــا الساكنـــــة) .

ومن ناحية رابعـــة : يبين رسل بنـــاء على ما تقدم أن أصغر قطعة من الكرسى تفقد شخصيتها فيما يقرب من جـــزء من مائة الف جـــزء من الثانية (فالقـــول بأنه كرسى الأمس نفسه ، يشبه القول بأن الانجليز الآن هم الأمة التى كانت على عهد الملكة اليزابيث الأولى ..) .

وأخيرا يقرر رسل أن ما نعرفه عن المادة ليس الا كونها سلسلة أحـــداث ترتبط بقوانين . ويقـــول برتراند رسل : (أنه قد توصـــل بعد دراسات استنفدت كل عمـــره الى أن الاستنباط الذى لا يمكن التدليل عليه أو برهنته يعتبر أيضـــا مقبولا وجائزا . وعند رفض هذا النوع من الاستنباط ســـوف يصاب النظام الكامل للعلوم والحياة الانسانية بالشلل .).

ويقول أيضا : (ان العلوم تشمل كلا العالمين الحقيقى ، والمفترض ، وكلما تقدم العلم ازداد فيه عنصر الاعتقـــاد ، فبعض الأشياء فى العلوم حقـــائق مشاهدة ، ولكن الأشيـــاء العليا تجريدات علمية ، يتم استنباطها بناء على المشاهدة) .

* * *

٣ ــ ويقرر هربرت سبنسر فى كتابه « المبادىء الأولى » فى كلامه عن الأفكار العلمية القصوى أن العلم مضطر الى الاستعانة بالكثير من المفاهيم الغامضة التى لا سبيل الى تفسيرها : كالزمان ، والمكان ، والمادة ، والحركة والقوة وما الى ذلك . وليس فى استطاعة العقل البشرى أن يستغنى عن أمثال هذه المفاهيم .

ولكننا لو حاولنا أن نتصور كل هذه المفاهيم العلمية فى العقل تصورا واضحا متمايزا ، لانتهينا الى مجموعة من المتناقضات التى لا يمكن أن يقبلها العقل .

ولننظر مثلا الى مفهومى المكان والزمان : فهل نقول بأنهما مفهومان واقعيان موضوعيان أم نقول بأنهما مفهومان ذهنيان ذاتيان ؟.

هذا ما يجيب عليه سبنسر بقوله : ان العقل البشرى عاجز تماما عن تفهم حقيقة أمر كل من المكان ، والزمان ... وهكذا ..

والحال أيضا بالنسبة الى المفاهيم العلمية الأخرى كمفاهيم المادة ، والحركة والقوة ، فانها جميعا تصورات غير قابلة للتعقل .

ومع أن سبنسر يحاول أن يكشف شيئا عن حقيقة هذه

المفاهيم ، فهو فى هذه المحاولات ينتهى الى أن ما يعلم منها يدل على حقيقة مجهولة نسلم بوجودها من غير أن نعرفها .

يرى سبنسر أن الزمان والمكان مفهومان مشتقان على سبيل التجريد من شعورنا بنوعين من العلاقة هما علاقة التتابع ، (الزمان) ، وعلاقة المعية ، (المكان) .

ان مفهوم المادة يرجع الى أبسط صورة لادراك المادة ، وهى تلك التى نجد أنفسنا فيها بازاء أوضاع متحيزة ذات مقاومة ، وهو يرى اننا لو جردنا الجسم من ضروب المقاومة التى ينطوى عليها لاختفى شعورنا بالجسم تاركا وراءه مجرد شعور بالمكان .

وأما فكرة الحركة فيرى سبنسر أنها مجرد فكرة لاحقة على شعورنا بالقوة ، وشعورنا بالقوة يأتى من احساسنا بالتوتر الذاتى ، والمقاومة الموضوعية ، ولذا يرى سبنسر أن « القوة » هى الفكرة النهائية للأفكار العلمية النهائية .

ويرى سبنسر : أن القوة التى نحدث بمقتضاها كل ما نحققه من مظاهر التغيير هى بطبيعتها قوة نسبية محدودة وهى معلول لعلة أخرى غير مشروطة هى القوة المحضة التى نجد أنفسنا مضطرين الى اقرارها لتكون بمثابة الطرف المقابل للقوة المعلومة « وهذه القوة المحضة هى العلة الوحيدة التى

تتمتع بالثبـــات أو الدوام ، والتى ليس لهـــا بداية أو نهاية ويستنتج سبنسر من ثبات القوة واستمرارها ، ثبات العلاقات القائمة بين القـــوى ، اطراد القانون . ويمضى سبنسر الى حد أبعد من ذلك حيث يستنتج من مبـــدأ اثبات القوة نتيجة أخرى هى : (تحول القوى وتكافؤها) ويرى أن ذلك لا يصدق على القـــوى الطبيعية وحدها بل يصدق أيضا على العلاقة القائمة بين القوى الجسمية والقوى النفسية .

ومعنى هـــذا أن مظاهر القوة التى نسميها باسم الحركة والحرارة والضوء .. الخ تقبل التحول الى المظاهر الأخرى التى نسميها باسم الاحساس ، والانفعال ، والتفكير ، ان لم نقل أن هـــذه ــ بدورها ــ تقبل التحول الى المظاهر التى سبقتهـــا ..

وهكذا نجد أنه فى التحليل النهائى الذى يقدمه سبنسر لما يسميه « الأفكار العلمية القصوى » ، تنهار الحدود التى يضعها الماديون للمادة لتقف فى نفس الموقف الذى توجد فيه المجـــردات .

يقول الأستاذ عباس العقاد : (ان المادة اليوم لا تصـــد المفكرين عن عالم الحقائق المجردة ولا هم يتخذون من صلابتها وجسامتها شرطا للحقيقـــة الثابتة . فان الحقيقة المادية نفسها لا تثبت اليوم بمجرد الصلابة والجسامة ولا تزال ترتد

الى أصولها حتى تؤول الى عدد من الهزات فى ميدان مجهول هو ميـــدان الأثير وميدان الفضاء فالمادة فى القرن العشرين قد اقتربت من عالم الفكر المجرد بل دخلته وأصبحت فى تقدير الثقات عملية رياضية .

***

٤ ـــ يقول الأستاذ وحيد خان : (أنه مهما كانت التجربة أو المشاهدة مباشرة الا أنهـــا لا تعدو أن تكون مظهرا خارجيا للحقيقة الواقعة . لأن تلك التجربة ليست هى الحقيقة نفسها . ومثال ذلك أن رقم التليفون مرتبط بصاحبه ، الا ان هـــذا الرقم ليس هـــو بعينه صاحب التليفـــون .. فواقع الارتبـــاط بين ضغط الزر واضاءة اللمبة يؤكد وجـــود علاقة خاصة مباشرة بين العمايتين ، ولكن على الرغم من هذا المظهر تبقى العلاقة الأصلية غير مرئية فلا يبقى لدينا الا استنباط نظرية ما تشرح تلك العلاقة الرابطة بين الواقعتين) .

وصدق الله العظيم اذ يقول **(ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) .**

والعلم الحديث اذن عندما يقطع علله وأسبابه عن الله ويسلم بغيبيات أخرى فهو انما يقع فى صورة حديثة من صـــور الاشراك التى أشارت اليها تلك الآية .

***

ومن هنا يمكننا أن نقول بالنتيجة التالية التى انتهى اليها العالم الكبير السير جيمس جبنيس :

» يلوح لنا أن الثنائية العتيقة التى تقول بالعقل والمادة . آخــذة فى الزوال لا لأن المـــادة تدخل فى ظلال وأشباح ، أو لأن العقل تحول الى وظيفة مادية ، بل لأن المادة الجوهرية تحيل نفسها الى شىء من خلق العقل ، ومظهر من مظاهره ، ونحن نستكشف أن الكـــون بيدى الدليل على قـــدرة مدبرة أو مسيطرة لديها العقل . . « .

* * *

ثانيا : العلاقة بين النسبى والمطلق :

يقرر سبنسر فى كتابه « المبــادىء الأولى » استحالة وصول العقل الى معرفة مطلقة . وأن كل محاولة يقوم بهـــا العقل من أجل تصور المطلق أو اللامتناهى ، لابد أن تنتهى الى تعيينه أو تحديده . وبالتالى فانها لابد من أن تحوله الى نسبى أو متناه . وذلك لأن كل فعل من أفعال العقل . لا يمكن أن يكون واضحا الا اذا توافرت له عناصر ثلاثة هى :

التمايز . والعلاقة . والتشابه .

ومعنى هــذا أنه اذا أريد لأية حالة ذهنية أن تستحيل الى فكرة أو معرفة . فانه ليس يكفى لهذه الحالة الذهنيــة أن تصبح منفصلة أو متميزة عن كل ما عداها من حالات ذهنية سابقة . وانما لابد لهـــا أيضا من أن تكون شبيهة أو مماثلة لبعض الحالات الذهنية التى سبـــق لنا ادراكها من قبل . وبعبارة أخرى يمكن القول بأننا لا نعرف الشىء معــرفة واضحة الا اذا كان فى وسعنا أن نشبهه (من بعض الوجوه أو كلها) بشىء أو أشياء أخرى سبق لنا ادراكها ، وأما اذا لم تكن للشىء أية صفة مشتركة تجمع بينه وبين أى شىء آخــر سبق لنـــا ادراكه . فان هذا الشىء لابد أن يظل لغـــزا منيعا أو مجهولا ، يخرج تماما عن حدود المعرفة .

كذلك فان كل فعل من أفعال المعرفة انما هو علاقة تنشأ فى الشعور بين بعض الحالات الذاتية من جهة ، وبعض القوى الموضوعية من جهة أخرى .

وقصارى القول عنده أنه لما كان الفكر يتضمن بالضرورة العلاقة ، والتميز ، والتشابه ، فانه لا سبيل لنا مطلقا الى تعقل اللامتناهى أو المطلق أو اللامشروط .

لكن سبنسر مع هذا لا يرى أن المطلق غير موجود ، بل أنه لا يرى أننا لا يمكننا أن نعرف ما اذا كان المطلق موجودا أو غير موجود .

وانما هو يرى أننا حينما نقرر أنه ليس فى وسعنا أن نتصور المطلق بعقولنا ، فاننا نحكم بعقولنا أيضا بأنه موجود . أنه يعنى أن فى صميم انكارنا لقدرة العقل على تصور المطلق ، يوجد اعتراف ضمنى بوجوده . ذلك لأن المطلق الذى حكمنا بعجزنا عن معرفته كان ماثلا أمام أذهاننا ، لا باعتباره عدما ، بل باعتباره « شيئا » وذلك لأن تفكيرنا بطبيعته يقوم على العلاقات لذا فان النسبى « نفسه سرعان ما يصبح غير قابل للتصور ، ان لم نتصور وجود علاقة بينه وبين حد آخر غير نسبى ، أى « مطلق » .

وقصارى القول أنه لابد من افتراض وجود شىء ثابت

يكمن خلف شتى الأعراض المتغيرة دون أن يكون من الضرورى لعقولنا أن تقدر على تحديده .

وهكذا يخلص سبنسر الى القول بأن قوانين الفكر التى تحظر علينا تكون تصور عن « الموجود المطلق » هى بعينها التى توجب علينا التسليم بوجوده .

وهنا تنحل عقدة من العقد تحول بين العلم المادى والدين . وفى هذا يقول سبنسر : « اذا كان كل من الدين والعلم يسلم بوجود « مبدأ مطلق » هيهات لنا أن نسير غوره ، أو حقيقة عليا ، يستحيل علينا أن نزيح النقاب عن اسرارها ، فمن أين نشأ اذن ذلك التعارض بين الدين والعلم ؟ . .

الحق أن الدين قد أدى ولا زال يؤدى دورا هاما فى حياة البشر ، لأنه قد حال بينهم — ولا يزال يحول — وبين الاستغراق التام فى « النسبى » أو « المباشر » فالدين قد أيقظ شعور البشر ، وجعلهم يحسون بوجود شىء ، فيما وراء الادراك الحسى المباشر .

ويقرر سبنسر : أن تطور العلم قد دنا من فكرة « الحقيقة المغلقة » التى يقول بها الدين ، ومن هنا يصبح العلم نصيرا للدين ، وعاملا هاما فى المحافظة على نقاء العقيدة الدينية الكبرى من شوائب التشبيه أو التخصيص .

٢ — ويرى هاملتون (فيلسوف انجليزى ١٧٨٨ — ١٨٥٦ م) أن المعرفة نسبية وذلك من ثلاثة وجوه . فانها تقوم فى نسبة بين حدين يجمع بينهما فى الحكم ، ونسبة بين ذات عارفة وموضوع معروف بحد أحدهما الآخر ، ونسبة بين جوهر وعرض ، فيدرك الجوهر بالعرض ويدرك العرض بالجوهر ..

هذه النسب قوام التفكير . اذا حاولنا رفعها . محونا كل معرفة ، وقعنا فى الوحدة المطلقة . فكل ما هو مدرك مشروط أى نسبى ، واللامشروط أو المطلق لا مدرك سواء أكان كلا أو جزءا .

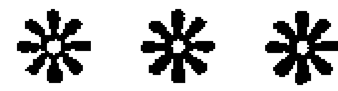
فان أى كل هو بالنسبة لنا جزء لكل أكبر . وأن أى جزء يمكن أن يتصور قابلا للقسمة فيكون من ثمة كلا .

بيد أن هاملتون يجد بابا للولوج منه الى الاقرار بوجود المطلق وأن كنا لا ندرى عنه شيئا وذلك لأن أى موضوع معروف فهو جزء من حيث أنه مشروط ، ومن ثمة فهو مردود الى لا مشروط ، وهذه النسبة تخرجنا من حدود معرفتنا وتجعلنا نثبت وجود المطلق .

***

٣ — ويستند « منسل » وقد كان فيلسوفا ، وأستاذا

باكسفورد وكبـــير قساوســـة كنيسة سنت بول (١٨٢٠ ــ ١٨٧١) الى قـــول أستاذه هملتون أن معرفتنا العقلية لا تبلغ الى المطلق ، ويرتب عليه امتناع اللاهوت العقلى لكنه يذهب فى نفس الوقت الى أن العلم الانسانى ما دام نسبيا فهو لا يملك الاعتراض على الوحى ، وأن الصعوبات والمتناقضات ليست ناشئة من الوحى ، بل من حدود العقل الذى يزعم مع ذلك الخوض فى المطلق ، على حـــين أن حدوده تدل على أن شيئا قد يوجد ويكون فوق متناوله . .



ثالثا : العلاقة بين حتمية القانون والارادة الالهيــة :

يسلم العالم الطبيعى بمبدأ الحتمية . أى القول بأن لكل ظاهرة علة توجب وقوعها . ولكل علة معلول ينشا عنهــا : فالظواهر يتحتم وقــوعها متى توافرت أسبابها . ويستحيل أن تقع مع غياب هذه الأسباب . وهذه الاستحالة هى ما تسمى بالضرورة .

ولمــا كان العقليون قد ردوا مبــدأ العلية الى ضرورة عقلية . فان دفيد هيوم كان أول فيلسوف غربى ينكر ذلك . اذ فسر المبادىء المسلمة التى ظن العقليون أنها فطرية وعامة فى الناس ، بأنها مجــرد ترابط بين الافكار مرجعه الى قانون ترابط المعانى بالتشابه أو التجــاوز الزمانى ، والمكانى . ثم اعتبر قانون العلية مجرد عادة ذهنية تنشأ عند الناس كلما راوا حادثتين مطــردتى الوقوع أو متتابعتين فنشا عن هذا فى أذهانهم اعتقــاد بأن اللاحق يعقب السابق ، وليس مــن المعقول أن تعرف رابطة العلية بالاستدلال العقلى ، اذ يستحيل أن يستنتج الانسان معنى المعلول من معنى العلة .

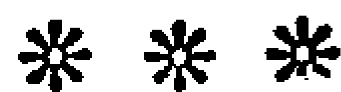
واذا اختلت هذه الحتمية بارجاعها الى العادة الذهنية ، يختــل بالتالى مبدأ التعميم الذى يأخذ به البحث العلمى . اذ يستند الى الاستقراء ، والاستقراء لا يتيسر فيــه ملاحظة

كل فرد من أفراد الظاهرة فى كل زمان ومكان ، فيكتفى الباحث حينئذ بملاحظة نماذج منها فى حاضره ، ثم يعمم حكمه على جميع أفرادها فى كل زمان ومكان .

ان هذا التعميم يختل أيضا ـــ لأنه كما يقول هيوم ـــ ليس لدينا دليل تجريبى أو منطقى يبرر هذا التعميم الذى ينسحب على الماضى والحاضر والمستقبل .

وقد سبق الى هذا ، العالم العربى المسلم جابر بن حيان (المتوفى ١٩٨ هـ ـــ ٨١٣ م) . قبل أن يفطن اليه ديفيد هيوم ببضعة قرون من الزمان ووصفه فى صورة أدق اذ لم ينكر العلية فى ذاتها ولكنه ارجع الاستدلال الاستقرائى الى « العادة » وحدها ، وليس الى الضرورة العقلية اذ ليس فيه كما يقول (علم يقينى اضطرارى برهانى أصلا ، بل علم اقناعى يبلغ الى أن يكون أحرى وأولى وأجدر لاغير ..) .

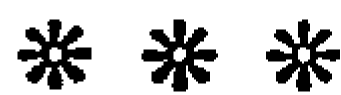
وينتهى جابر الى ما انتهى اليه الغربيون أنفسهم من علماء القرن العشرين الى أن قوانين العلم الطبيعى التى تتمثل فى التعميم المشار اليه احتمالية ترجيحية لا تبلغ فقط مرتبة اليقين وعلى هذا (ليس لأحد أن يدعى بحق أنه ليس فى الغائب الا مثل ما شاهده ، أو فى الماضى والمستقبل الا مثل مافى الآن ..) .



كذلك سبق الغزالى الى رفض تفسير العقليين للعلاقة السببية بين الظواهر الطبيعية .

يقـــول الغزالى فى تهافت الفلاسفة (ان الارتبـــاط بين ما يعتقـــد فى المادة سببا وما يعتقد فى المـــادة مسببا ليس ضروريا عندنا بين كل شيئين .

ليس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا اثبات أحـــدهما متضمن لاثبات الآخر ـــ فليس من ضرورة وجـــود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل الرى والشرب ، والشبع والأكل ، والشفاء وشرب الدواء ، وهلم جـــرا ، الى كل المشاهدات من المقتـــرنات فى الطب ، والنجوم ، والصناعات والحرف) .



ولكن الغـــزالى ـــ خلافا لهيوم ـــ يستطرد من ذلك الى تفسير هذا الترابط بارجاعه الى تقدير الله سبحانه ، ويقول : (وأن اقترانها لمـــا سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوق ، لا لكونها ضروريا فى نفسه .) .

أما أميل بوترو (١٨٤٥ ـــ ١٩٢١) فيرى أن مبدأ السببية

ليس مفروضا أوليا لا فى الذهن(١) . ولا فى الأشياء الخارجية .

ان السبب عنده هو الشرط ، أو مجموع الشروط التى تؤدى الى أحداث ظاهرة معينة .

وبهذا المفهوم يكون السبب من جملة الظواهر ، فهو متغير مثلها . والقانون لا يفرض فرضا على الأشياء الطبيعية . بل هو نتيجة لها . وهذه الأشياء اذا تغيرت لاجرم بتغير القانون .

ويرى بوترو أن كل موجود ضرورى من وجه وحر من وجه آخر . وأنه فى الكائنات الدنيا يطغى جانب الضرورة على جانب الحرية .

---

(١) يقول بوترو — معارضا بذلك (كانت) الذى يرى أن قانون العلية من ضرورات العقل ، لا ينبغى أن ننسى أن التجربة هى التى أوحت الى الذهن البشرى بفكرة السبب الطبيعى وليست هذه الفكرة مبدأ أوليا يخضع له أحوال الموجود ، بل هى الصورة المجردة للعلاقة بين هذه الأحوال وليس لنا أن نقول أن طبيعة الأشياء مستمدة من قانون السببية ، اذ ليس هذا القانون . الا أعم تعبير عن العلاقات المستمدة من طبيعة الأشياء الواقعة بحسب ما نلاحظها . .

وأن الانسان هو اكثر الموجودات حرية . وليس ثمــة موجود له حرية مطلقة سوى موجود واحد هو الموجود الاعلى وهـــو الله ..

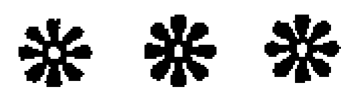
وللموجودات مثل أعلى تبغى تحقيقه . هذا المثل الأعلى هو الاقتراب من الله ، والتشبه به ، كل موجود بحسب طاقته ونوعـــه .

فالله هـــو منبـــع الحـــرية .

وهو مصـــــدر الخلق .

والنظـــــام .

والكمـــــال .



ويقـــول الأستاذ عباس العقاد عن موقف العلمـــاء : عاد العلماء التجريبيون الى القـــوانين الطبيعية التى تحكم الحرارة والحركة والضـــوء وكل ما فى عالم المادة من كهارب وذرات ، فوجدوا لها قانونا واحدا وهو الخطأ والاحتمال .

فالأستاذ ماكس بلانك(١) . وضع نظرية المقدار أو

---

(١) عالم بولونى ، حـــائز على جائزة نوبل فى العلوم الطبيعية عام ١٩١٨ .

الكوانتم وخلاصتها ان الاشعاع قفزات لا تعرف القفزة التالية من القفزة الأولى الا بالتقدير والترجيح .

والأستاذ هيزنبرج(١) تتلخص براهينه فى أن الموضع والسرعة لكهرب معين لا يمكن تحقيقها فى لحظة معينة على وجه اليقين وان موقع الكهرب بعد ثانية يتراوح اختلافه الى مدى أربعة سنتيمترات ..

والأستاذ شرودنجر : أسفرت تجاربه عن أن تقدير ما سيحدث تطبيقا للقوانين المادية ممكن ولكنه غير محتوم . ومن مقرراته أن القوانين التى تنطبق على الذرات فى الطبيعة لا تنطبق على الذرات فى البنية الحية ، وان الصورة هى قوام المادة فلا يصح أن يقال ان هذه الذرة الصغيرة من المادة هي نفسها التى رصدناها قبل لحظة ونرصدها بعد لحظة تالية ، .. وكل ما يثبت منها هو الشكل أو الصورة التى تتكرر فى رصد بعد رصد بغير ذاتية ثابتة) .

وما ذهب اليه هؤلاء الثلاثة فانهم لا ينفردون به ولكنها (نظريات عامة يقررها معهم علماء الطبيعة جميعا ولا يخالفوهم فى مبادئها .. فلا اختلاف على نقض القوانين الطبيعية أى على أخذها بالتقريب دون الضبط المحكم) .

---

(١) عالم بولونى ، حائز على جائزة نوبل فى العلوم الطبيعية عام ١٩٣٢ .

وهكذا يتبين لنا أن قانون السببية أو العلية أو الترابط بين الظـواهر لا يعنى ـ ان صـح ـ الحتمية ، ولا يعنى التعميم ، ويبقى فى الأمر مجـال لارادة عليا ، هى التى شاءت الربط بين السبب والمسبب ، أو بين الظـواهر المتشابهـة أو المتجاورة ، كما يبقـى فيه مجال لافتراض التخلف عـن التعميم ، بوجود أمثلة تأتى على غير القاعدة العامة .

ومـع افتراض حتمية القانون فانه : لا يلغى الارادة الالهية الا عند أولئك الذين يتصورون الألوهيـة تصـورا بشـريا .

وعلى سبيل المثال نقرأ النص التالى :

(من بين مجموعـة النقوش الكاتدرائية التى تعبر عـن كثير من حقـائق اللاهوت فى العصور الوسطى نقش يمتاز بالتعبير عـن مذهب لاهوتى فى أصـل الكون ظل موضع الاحترام والاجلال أزمانا طوالا .

الواحد القهـار فى صورة تشرية جالس بودامـة ولين يصنع الشمس والقمر والنجوم ويعلقها فى القبة الصلبة التى تحمل من فوقها السموات العـلا ، وتظلل الأرض السفلى . أما عـلائم التفكير الظاهرة فى تقطب جبينه فتنم على انه أجهـد نفسه امعانا فى التدبر والاستبصار .

كما يدل انتفاخ عضلات ذراعيه على أنه قد اضطر الى أن يكـد وينصب .

ومن الطبيعى ان يكون المثالون والمصورون خلال القرون الوسطى ، وفى بدء العصـور الحديثة قد عمدوا الى تمثيله على مقتضى ما تصوره كتاب ذلك العصر ، اذا كانوا يقولون بأنه استراح فى اليوم السابع) ! .

ومن هنا حق للعلماء التجريبيين فى أوربا ان يقعوا فى وهم التناقض ، بين النظام وبين الألوهية .

ومنشأ ذلك ان صـورة الألوهية عنـدهم مستمدة من الأساطير الاغريقية . أو من اله أرسطو ، أو من الالوهيـة فى « العهد القديم » . أو من الالوهية فى « العهد الحديث » .

وهى كلها لا تعطى تصورا يوفق بين الالوهية والنظام ، او بين الالوهية والقانون ...

أما تصور الالوهية فى الاسلام فهو لا يتعارض مع تصور القانون والنظـام .

بل ان الاسـلام هو الذى يضع ضمان استمرار القانون الطبيعى ، وذلك فى قوله تعالى **(ولن تجد لسنة الله تبديلا)**

الا أن هذا الاستمرار متوقف على الارادة الالهيـــة ، وانما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) .

فهنا يبـــدو الانسجام واضحا بين ارادة الله واطراد القانون ، ويظـــل هناك موضـــع للخوارق التى يظهرها الله بين الحين والآخر ، تذكيرا للانسان بمصدر الوجود ومصدر القوانين وهو الله سبحانه وتعالى .

* * *

رابعا ـ قضية العــلاقة بين العلم المادى والالحاد

وفى هذا المجال يتبين لنا أن العلم المادى يتناقض فى موقفه الالحادى تناقضا أساسيا فى ثلاث نقاط :

التناقض الأول : ان النزعة الالحادية اذ تنكر على الدين قوله بأن وجود الله هو لذاته ، لعدم امكان تصور العقــل أن يكون فى استطاعة شىء ما أن يكون علة لنفسه ، تذهب الى نفس الشىء اذ تقرر كون المادة علة لذاتها وهذا ما لاحظه سبنسر اذ يرى أنه فى الحالتين نأخذ بفكرة الوجود الذاتى .

التناقض الثانى : ويبقى بعــد ذلك ان نبــين أن مذهب التألية ينبنى على أسس ثابتة فى أخذه بفكرة الوجود الذاتى للاله . لأنه يضفى على تصــوره للألوهية صفــات الكمال ، التى تمشى مع هــذه الفكرة ، **اما النزعة الالحادية فتتناقض** مع نفسها مرة ثانية اذ تتصور الحالة الأولى للمادة فى أحط صورها وأدناها ، مما يتناقض مع فكرة الوجود الذاتى ..

التناقض الثالث : يقول الأستاذ وحيد خان : « ان قضية العصر الحديث ضد الدين تشتمل على جانبين متناقضــين فى آن واحــد » .

فبينما يرى العقل الحديث من ناحية ان الدين مجموعة عقــائد لا يمكن اخضاعها للتجربة العلمية ... نجد فى نفس

الوقت أن جيشا من مفكرى هذا النهج الفكرى يدعون أن الكشوف العلمية الجديدة قد أبطلت العقائد الدينية . ونحن نرى أن كلا الاتجاهين مناقض للآخر ، فالدين حيث أنه يتعلق بموضوع غير قابل للاثبات بالتجربة العلمية فللسبب نفسه يجب أن يكون رفض الدين مستحيلا أيضا ، بناء على هذه المقاييس نفسها .

وبكلمة اخــرى يتلخص موقف العصر الحديث فى أنك لو حاولت اقامة الأدلة لاثبات الدين فانهم سيقولون لك : انك تجهد نفسك عبثا لأن الدين ليس بشىء يمكن اثباته علميا لعدم امكان خضوعه لمقاييس العلم الحديثة .

ولكن هــؤلاء أنفسهم عندما يقيمون الأدلة ضد الدين ، يجعلون من ذلك الدين نفسه ميدانا يمكنهم اقامة الأدلة العلمية لرفضـــه ...) .

ثم يبين عجز العلم عن اقامة الأدلة على ابطـال الدين فيقـــول :

(فاذا كان المبـدأ العلمى هو أن الحقيقة ليست الا نتائج المشاهدة والتجربة العلمية ، فلن تستقيم قضية معارض الدين الا اذا توصلوا بالمشاهـدة والتجربة نفسهـا الى أن الدين فى حقيقتـه النهائية باطل ، فيجب أن تصـل مشاهـداتهم

ودراساتهم الى الحـــد الذى يسمح لهم بالمجاهرة ، بانهم قد شاهــدوا وجربوا كل شىء داخل الكون وخارجه فى أقصى مداه . وانهم بنـــاء على ذلك يعلنون انه ليس هناك الله ولا ملائكة ولا جنة ولا جحيم ، بنفس الثقة التى تمتع بها رجــل بصير يدير عينيه فى حجرة مقياسها ١٠ × ١٠ من الأمتار ثم يعلن انه لا يوجد فى هذه الحجرة فيل ولا اسد .

❋ ❋ ❋

الفلسفــــة الوضعيــــة

عنـــــد أوجست كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٧٥)

رأى أوجست كونت أن الاضطراب العقلى الذى تعانيه الانسانية مرجعه الى أن الناس يعتمدون على ثلاث فلسفات متعارضــــــة هى :

الفلسفة اللاهوتية ، والفلسفة الميتافزيقية ، والفلسفة العلمية أو الوضعيـــة .

وأنه قديما سيطرت الفلسفة اللاهــوتية بمضمونها الأسطورى الخرافى ، ثم أفسحت مجالا للفلسفة الميتافزيقية ــ وهى وثيقة الصلة بالخرافة ، فى حــين ان الفلسفة الوضعية لم تتخذ طريقها الى العقــول الا بعد تقدم العلوم الطبيعية المادية ابتداء من القرن السابع عشر ، ومع ذلك فان هـــذه الفلسفة الأخــيرة لم تستطع القضاء نهائيا على الرواسب اللاهوتية والميتافيزيقية مما أدى الى ظاهرة الفوضى العقلية ، وما يترتب عليها من صراع وأخطاء أخلاقية واجتماعية .

ويعتقد أوجست كونت أن النصر سيكون فى آخر الأمر حليف التفكير الوضعى .

والفلسفة الوضعية عنده تعنى :

ان كلا من اللاهوت والفلسفة الميتافزيقية ، قد استنفدت موضوعاتها وافتقدت ما يبرر وجودها اذ كانت قائمة عندما كانت بديلا للعلم أو مرادفة له ، ولكن العلم قد انفصل عنها موضوعا ومنهجا أصاب من النجاح ما لم يقدر شىء منه للميتافيزيقية أو اللاهوت .

ومن هنا يتقرر فى الوضعية أن كل شىء وراء المعرفة الوضعية التجريبية ، ليس فى مقدار العقل البشرى أن يدركه لأن مجال التفكير العقلى الصحيح انما هو الحقائق وقوانينها والظواهر والعلاقات الثابتة التى تربط بالبعض الآخر ..

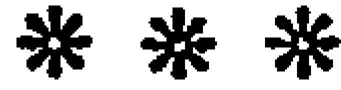
ومن هنا يتقرر فى الفلسفة الوضعية مبدأ النسبية(١) .

ولا يحاول الوضعيون أن يبرهنوا على نسبية المعرفة

---

(١) بينا فيما سبق أنه من صميم القول بالمادى يوجد الغيبى ، وفى صميم القول بالنسبى يوجد المطلق . وفى هذا الرد على أسس الفلسفة الوضعية .

بتحليل العقل ونقده ، كما فعل غيرهم من الفلاسفة أمثال : هيـوم ، وكانت ، وهاملتون ، ومنسل، وانما هـم يدللون عليها بما توهمـوه تاريخا للعقـل على النحو الذى سبقت الاشـارة اليــه .



علم الاجتمــــاع :

ويرى كونت أن انتصار الفكر الوضعى لن يكون الا اذا أمكن تطبيق المنهج العلمى على الظواهر الانسانية الاجتماعية ، أى يوضع على الاجتماع ، على غرار العلوم الطبيعية .

وعنده أن المجتمع يتغير ، وتغيره يخضع لقوانين مطردة تشبه القوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية فى العالمين العضوى وغير العضوى .

ووجود هذه القوانين ــ هكذا كان يعتقد ــ لا يفسح مكانا للتغييرات اللاهوتية أو الميتافيزيقية .

وان علم الاجتماع ــ على هــذا النحو ــ سوف يشهد مصرع التفكيرين اللاهوتى والميتافيزيقى ، بعد أن تم القضاء عليه فى بقيـــة فروع المعرفة ، وبقى ان يتم طــرده من مجال الدراسات الاجتماعية .

ويقسم كونت هذا العلم الى قسمين :

أحدهما : خاص بالناحية التطورية ، التى يطلق عليها الآن اسم التغير الاجتماعى .

الثانى : خاص بالناحية الثابتة فى الظواهر الاجتماعية ، وهى الناحية التركيبية أو البنائية فى المجتمع .

ويرى كونت أن العنصر الجوهرى فى علم الاجتماع التطورى هو ان كل حالة من الحالات الاجتماعية تعد نتيجه للحالة السابقة : ومقدمة حتمية للحالة اللاحقه . وهكذا يهدف هذا القسم الى الكشف عن قوانين التطور فى المجتمع .

قانون الاحوال الثلاثة :

يرى أوجست كونت ان تاريخ انشاء علم الاجتماع الذى نتوقف عليه بقية المذهب الوضعى ، يرجع الى اليوم الذى كشف فيه — أى كونت — عن القانون المسمى بقانون الأحوال الثلاثة : ويعبر كونت عن هذا القانون بالصيغة الآتية :

(بناء على طبيعة العقل الانسانى لابد لكل فرع من فروع معلوماتنا من المرور فى تطوره بثلاث حالات نظرية متتابعة : الحالة اللاهوتية او الخرافية ، والحالة الميتافيزيقية او المجردة وأخيرا الحالة العلمية او الوضعية ...) .

ويرى أوجست كونت أنه متى ثبت هذا القانون فان علم الطبيعة الاجتماعية لا يظل مجرد فكرة فلسفية ، بل يصبح علما وضعيا .

ومن هنا كان هذا القانون المجرد الأساس للمذهب الوضعي بأسره .

وقد تكهن بهذا القانون كثيرون قبل كونت - مثل تيرجو - وكوندرسيه - وبيردان . بل حددت صيغته منذ القرن الثامن عشر . ومع هذا ينسبه كونت الى نفسه ! .

ويقول ليفى بريل : لعلنا نسلم له بذلك لا على أساس أنه هو الذى استخلصه من الظواهر قبل غيره ، ولكن على اساس أنه تعرف فيه على القانون الأساسى الذى يسيطر على التطور العام للانسانية كما أدرك أهميته الرئيسية . فى قيام الفلسفة الوضعية التى تحل محل اللاهوت والميتافيزيقيا .

نقد قانون الأحوال الثلاثة :

والآن فانه لا يهمنا أن ندرك قيمة ذلك القانون الذى استعمله كونت كمفتاح يغض به مغاليق الانسانية ممهدا بذلك ـ كخطوة أولى لابد منها ـ لاستنباط مبادئه الأخلاقية ، ولمباشرة تنظيماته الاجتماعية . ولن نضفى نحن على هذا القانون اهمية أكبر من تلك التى أضفاها عليه كونت نفسه ،

حيث اعتبرا أساسا لعلم الاجتماع . ذلك العلم الذى يمكنه وحـــده أن يحـــدد لنا ما اذا كان من الممكن دراسة الظواهر الاجتماعية والخلقية دراسة وضعية أم لا ؟!.

وعـــلاوة على ذلك فان أهمية هذا القانون تظهر بوضوح اكبر عنـــدما ندرك أنه يمثل فى نظـــر كونت منطق التطور التاريخى الحاسم الذى يصبح الدين والميتافيزيقيا بمقتضـــاه مجـــرد أثر من آثار القرون السالفة قضت عليها سيادة العلم « الحتمية »(١) ويصبح الدفاع عن تلك الآثار بغرض احيائها عمـــلا من الأعمال المضادة لطبائع الأشياء والواقع أن فكرة هـــذا القانون لا يمكن التسليم بهـــا من واقع الفكر المعـــاصر لكونت نفسه ، وذلك باقـــراره هو ، حيث اعترف بوجـــود التعاصر بين هذه الحالات الثلاث فى الفكر السائد حينذاك(٢) .

واذا كان كونت يفسر ذلك التعاصر بأنه مؤقت ولا يمكن أن يستمر ، واذا ما قبلنا هذا التفسير على علاته فكيف لنـــا أن نفسر استمرار هذا التعاصر الى الوقت الحاضر ، أى الى ما بعـــد مضى قرن ونصف على ذلك الكلام الذى قاله كونت ؟ كيف لنا أن نفسر تلك العقلية الغـــربية التى تتشبث بنبوءات التنجيم أشـــد من تشبث القرون الوسطى ، وذلك حيث ينتشر

---

(١) لقد تحدثنا من قبل عن العلاقة بين حتمية القانون وارادة الله .

(٢) م ٦ ص ٤٨ .

التنجيم الآن فى العالم الغربى بصورة لم يعهدها الشرق من حيث التعميق والتبويب والاستقصاء والشيوع(١) .

وما هو رأى أوجست كونت مثلا فيما قرره العلم (وهو أمر لابد من التسليم به عنده لأنه كلمة العلم) من أن عمر الجنس البشرى يبلغ حوالى مليون عام . كيف يتم لأوجست كونت ، توزيع الحالات الثلاث على هذا المليون ؟ اذا كان الطور العلمى قد بدأ بشائره على عهد كونت فكيف يمكن له توزيع الحالتين الأوليين ؟ واذا كان من الممكن الاعتذار عن وجود الحالة الثانية « الميتافيزيقية » وتداخلها فى الحالة الثالثة : فكيف يمكن الاعتذار عن وجود الحالة الأولى التى من المفروض أن عهدها قد انقضى منذ آلاف السنين ؟.

ثم ما هو رأى أوجست كونت فى انتاجه الفكرى الخاص به والذى بدأ به وضعيا ثم انتهى دينيا ؟!.

واذا فرضنا جدلا صحة هذا القانون فما الذى يجعلنا نرتب عليه حياتنا ومستقبلنا . وتفكيرنا بخضوعنا له ؟ الأنه حكم التطور فحسب ؟ وبعبارة أخرى ما الذى يجعل للتفكير العلمى قيمة أعلى وأفضل من قيمة التفكير الميتافيزيقى أو اللاهوتى ؟ أهو قانون التطور من حيث هو قانون لا يمكن

---

(١) مقال الأستاذ عباس العقاد بمجلة أخبار اليوم ١٩٥٦/١/٢١ السنة الثانية عشرة العدد ٥٨٥ .

مراجعته فحسب ؟! أم المقياس أنه تطور تقدمى ؟ لكننا نرجع أخيرا فنتساءل أليس التقدم فى هذا المجال نفسه يحتاج الى مقياس لنعرف به ما يكون تقدما وما يكون رجوعا ؟ فما هـو ذلك المقيـــاس ؟.

اننا نقـول مع الأستاذ الجليل الدكتور محمد عبـد الله دراز(١) :

« الواقع ان الحالات الثلاث التى يصورها كونت لا تمثل أدوارا تاريخيـة متعاقبة ، بل تصـور نزعات ـ وتيارات متعاصرة فى كل الشعوب ، وليست كلها دائما على درجـة واحـدة من الازدهار أو الخمول فى شعب ما ، ولكنها تتقلب بها الأقدار بين بؤس ونمو ونحوس وسعود ، بل نقول ان هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجـاورة فى نفس كل فرد ، وأن لها وظائف يكمل بعضها بعضا فى اقامة الحياة الانسانية على وجهها ، ولكل واحدة منها مجال يوائمها :

« بل انه اذا كان من الضرورى بيـان كيفية نشأة هـذه العناصر الثلاث المتعاصرة المتكاملة .

نرى أن النظـرة الواقعية تقـع فى مبدأ الطريق لا فى

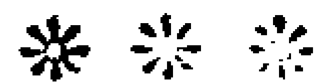
---

(١) فى كتابه « الدين » بحـوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان : طبعة سنة ١٩٥٤ ص ٧٨ .

نهايته ، وأنها تمثل مرحلة الطفولة النفسية ، أما نظرة التعليل بالمعانى العامة الميتافيزيقية ، فانها تنبثق فى النفس على أثر ذلك ؟ وتبقى بعد ذلك النظرة الروحية أو الدينية ، وواضح أنها لا تولد فى النفس الا حينما يتسع أفقها فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه الى ما وراءه فهى أوسع النظرات مجالا وأبعدها مطلبا » .

وهكذا ينقلب الترتيب الذى تخيله الفيلسوف رأسا على عقب على ان الذى يعنينا هنا انما هو دخول هذه النزعات جميعا فى كيان النفس الانسانية ، فكما أننا لا نجد امارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو التعليلية ، كذلك لا نرى امارة واحدة تشير الى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الانسان » .

وهكذا ينهار المبرر الأساسى المستند الى حتمية التطور التاريخى والذى ظن كونت انه كاف فى رفضه للفكر الميتافيزيقى واللاهوتى) ؟.



مذهب التطور الحيوى

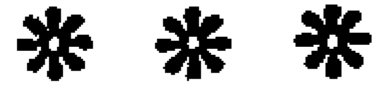
الفكر التطورى قبل دارون :

توجد البدايات الأولى لفكرة التطور فى كتابات بعض فلاسفة الاغريق ، خصوصا أرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢) الذى اعتقد أن الكائنات الحية قد ارتفعت من أنواع بسيطة الى أنواع معقدة يعتبر الانسان ذروتها .

ولكن هذه الفكرة لم يكن لها حظ الشيوع لاختلافها مع فكرة الخلق الخاص التى جاءت بها الأديان .

أما فى العصور الحديثة فان العالم الفرنسى بوفون (١٧٠٧ — ١٧٨٨) كان أول عالم بيولوجى يستبعد نظرية الخلق الخاص ، وأشار الى ان الحيوانات قابلة للتغير تبعا للبيئة وأن التغيرات البسيطة التى تطرأ على الحيوانات تتجمع لتكون تغيرات كبيرة ، وأن كل حيوان نتيجة تغيرات حدثت لحيوان سابق أقل منه وأبسط تركيبا .

ثم ظهرت نظرية التطور فى صورة متكاملة عند لامارك .



نظرية التطور عند لامارك :

وهو عالم فرنسى فى علم النبات والحيوان ولد ١٧٤٤ ــ توفى ١٨٢٩ م) ..

وقد استكمل وضع نظريته فى التطور فى كتابه « فلسفة علم الحيــوان » عام ١٨٠٩ م .

وتتلخص نظـــريته فى :

ان البيئة تؤثر فى شكل الحيوانات وتركيب أعضــائها . وأن الاستعمال المتكرر او المستمر لأى عضــو يزيد فى حجمه بينما يؤدى عــدم الاستعمال الى ضعفه وصغر حجمــه حتى يختفى ..

وأن الصفات المكتسبة التى تتكون على هذا النحو تنتقل الى الأجيــال بالتوارث : وأن هــذه الصفات تتكاثر بمرور الزمن ، الى أن تحدث نوعا جديدا من الحيوانات .

النقـــد العلمى لنظرية لامارك :

١ ـ كان الرأى السائد عند العلماء أن هذه النظرية ترتكز على انتقال الصفات المكتسبة بالتوارث . وبما أن التجارب العديدة أثبتت أن الصفات التى يكتسبها الفرد أثناء حياته لا تتوارث فانهم رأوا أن هذه النظرية استحقت أن تتوارى فى ظلام النسيان ، لتفسح الطريق أمام داروين .

٢ ـ ثم ظهر فى السنوات الأخيرة كتاب للعالم الانجليزى جراهام كانون ، قرر فيه أن نظرية لامارك أصابها التشويه ، وأنها لم ترتكز كما قيل على مبدأ انتقال الصفات المكتسبة بالوراثة ، وانما استندت الى مجموعة قوانين ، لم يكن قانون انتقال الصفات المكتسبة بالوراثة الا واحدا منها ، كما أنه لم يكن أهمها ، وأن القوانين الأخرى يقوم كل منها بنفسه ، ولا تتوقف صحته على صحة الآخر ، وبين كانون أن لامارك قد وضع بجانب قانون انتقال الصفات المكتسبة بالوراثة قانون الانتخاب الطبيعى ، والصراع على البقاء ، قبل أن يذكر داروين عن ذلك شيئا بنحو خمسين عاما .

كما يبين أن داروين تقبل ما قاله لامارك من أن الاستعمال المتكرر أو المستمر لأى عضو يزيد فى حجمه ، بينما يؤدى عدم الاستعمال الى ضعفه وصغر حجمه حتى يختفى . ويدافع كانون عن مبدأ انتقال الصفات المكتسبة بالوراثة ، على أساس التسليم بأن الخلايا التناسلية تؤثر فى الجسم

فيقرر أنه لابد من التسليم أيضـــا بأن الجسم يؤثر فى الخلايا التناسليــــة .

ويبرز كانون ان لامارك لم يأخذ بما أخذ به دارون بعـــد ذلك ـــ من اعتمـــاد التطور على الطفرة التى تحـــدث بمحض الصـــدفة . وانما افترض وجود قوة موجهة هـــادية مستقرة فى أعمـــاق كل كائن حى تتحكم فى تطـــوره وتوجيهه وتسبب ظهور الصفةالجديدة ، أو العضو الجديد عند حاجـــة الكائن اليـــــه ..

ويتهم كانون داروين بأنه كان على علـــم بآراء لامارك ، ومع ذاك فانه لم يشر اليها مطلقا فى كتابه « أصل الأنواع » .

* * *

نظرية : والاس ـــ داروين :

توصل والاس (١٨٢٣ ـــ ١٩١٣ م) مستقلا الى مبادىء نظرية الانتخاب الطبيعى فى عام ١٨٥٨ .

ثم أرســـل مقالته عن هذا الموضوع الى داروين ، بينما كان الأخـــير يستعد لنشر نظريته ، وفى اجتماع للجمعية العلمية بلندن قرئت مقالة والاس مع ملخص لنظرية داروين .

ولذلك يسمى بعض المؤلفين نظرية الانتخاب الطبيعى نظرية داروين ـــ والاس) .

يقول داروين « حين وجدت أن عددا كبيرا من المشتغلين بالتاريخ الطبيعى قد أصبحوا يتقبلون مبدأ تطور الأنواع وجدت من المناسب أن أستغل البيانات والملاحظات التى جمعتها من قبل فعكفت على ترتيبها وتفصيلها حتى كان هذا الكتاب » ..

ولذا يمكن القول بأن داروين كان وارثا ـــ وليس خالقا لمشكلة الاهتمام العام بالتطور .

بل لقد كان وارثا أيضا لموقف التشكيك فى مسلمات المسيحية ، ومنها فكرة الخلق كما وردت فى العهد القديم . اذ كان العلم قد أدى الى ظهور فلسفة ميكانيكية تتصور الطبيعة نسقا من المادة المتحركة طبقا لقانون محكم ، يختلف عن التصور الدينى الذى يرد الأحداث كلها الى ارادة الله مباشرة .

ومع ذلك فقد كان داروين فى مناداته بفكرة التطور جريئا ومجددا ، لأن ما اثير حول هذه النظرية من قبل لم يكن الا من قبيل المحاولات ، والافكار الغامضة ، وظلت الى وقته ـــ نظرية الثبات راسخة غالبة على كل ما عداها من النظريات .

العناصر الاساسية لنظرية التطور عند داروين :

١ ــ الانتخاب المقصود : والتغييــرات التى تظهر على النـــوع الواحد :

استرعى انتباه داروين الاختلافات الواضحة بين سلالات نوع واحــد من الحيوانات المستأنسة أو المنزلية ، وتكون سلالات جديدة بدون انقطاع .

وتأكد له « أن أى نوع من الأنواع المنزلية أو المستأنسة عرضة للتنوع والاختلاف الذى لا نهاية له » .

ولم يستبعد داروين عامل البيئة كسبب لظهور هــذه التنوعات ــ وهو ما أشار اليه لامارك من قبل ــ ولكنه أكد أهميــة عامل « الانتخاب » الذى يقــوم به المربى ، بطريقة منهجية مقصودة . كما لاحظ أن هذا التدخل الانسانى لا يمكن أن يتم الا اذا منحته الطبيعة الفــرصة لذلك . وذلك عن طريق استغلال ما تضـــعه الطبيعة أمامه من : الفروق الفردية ، والتغيرات التلقائية أو الطفرات .

لكن كيف تحدث هــذه الطفرات ؟ اعترف داروين بأنه لايستطيع الاجابة على هذا السؤال .

٢ ــ الانتخاب الطبيعى : والتغيير من نوع الى نوع جديد :

اذا كان الانتخاب المقصود يؤدى الى « تفرعات » على النوع الواحد ، لا يمكن انكارها حتى من أشد أعداء نظـرية التطـــور ...

فانه من الواضح أنه لا يصلح دليلا على ظهـور أنواع جـديدة من أصل نوعى واحـد . وهنا يقدم داروين نظريته فى التغييرات المتلازمة . ومضمونها أن التغييرات الشكلية التى يعنى بهـا مربو الطيـور مثلا ــ لاخـراج « تفرع » على « النوع » تؤدى بطريق التلازم الى ظهور تغييرات عضوية يصعب ملاحظتها فى بادىء الأمر .

وهذه التغييرات العضوية تنتقل بهذا التفرع المستحدث الى « نوع ثانوى » ثم هى تنتقـل بهذا النوع الثـانوى الى نوع جـديد فى النهاية .

واذا كانت هـــذه التغييرات ، من النوع الأصلى الى التفرع ، الى النوع الثانوى ، الى النوع الجديد ، لا تظهـر للملاحظة فى مجال الانتخاب المقصـود ، فان السبب فى ذلك يرجع الى قصر الوقت الذى يحدث فيه الانتخاب المقصـود . وهنا يظهر لنا أننا لسنا أمام الانتخاب المقصود ولكننا أمام

« الانتخاب الطبيعى » الذى يحتـاج الى مئـات ــ بل الى آلاف السنين ، لكى يظهر أثره للملاحظة العلمية .

ومن هنا فان هذه الملاحظة العلمية ، لا يمكنها أن تضع حدودا فاصلة بين الأنواع والتفرعات ، والانواع الثانوية ، والأنواع الجديدة (فهذه الاختلافات يندمج بعضها فى بعض فى تدرج غير ماحوظ) .

واذا كان مبـدأ الانتخاب المقصود ، ليس جـديدا فان الجديد الذى جاء به داروين هو استغلاله لهذا المبدأ وللملاحظات الخاصة به فى الوصول الى مبدأ الانتخاب الطبيعى .

واذا كان هدف الانتخاب المقصود ، تحقيق غرض خاص الانسان المربى ، بصرف النظر عـن مصلحة موضوع التجربة فان غاية الانتخاب الطبيعى هى تحسين الأنواع الموجـودة بالفعل ومعاونتها على التكيف بالبيئة والصراع على البقاء .

٣ ــ والصراع على البقاء يترتب عليه :

فناء عـدد كبير من أفراد النوع وبقاء من هم أكثر تكيفا بالبيئة وظروف الحياة . وبذلك يؤدى الانتخاب الطبيعى الذى يحركه الصراع على البقاء ، الى بقاء الأصلح ، وبقاء الاصلح لا يعنى « خلقا » وانما يعنى (احتفـاظا بالتغييرات الفردية النافعة للكائن ، واختفاء للتغييرات الضارة به) .

ومن هنا تظهر صفات جديدة نافعة ، تؤدى الى ظهور

متنوعات جديدة ، ثم الى ظهور انواع جديدة هى الأصلح من غيرها للبقاء ...

وقد لاحظ داروين أن الفقريات تتميز بتطور واضح فى الصفات الذهنية ، وبتركيب يقترب كثيرا من تركيب الانسان وهذه الفكرة ، تشير الى الأفكار التى انتهت به الى وضع كتابه الثانى « سلالة الانسان » .

٤ ــ أصل الانسان عند داروين :

فى كتاب « أصل الأنواع » ترك داروين مسألة أصل الانسان معلقة ، ولكنه عاد فرأى أن ليس هناك من موجب لاستثنائه من قانون التطور . وهو يصرح بذلك فى كتابه « تسلسل الانسان » ويقول بأن الفرق بين الانسان والحيوان فرق بالكم أو الدرجة فقط .

وأن المسافة بين القوى الفكرية لحيوان من أدنى الفقريات ، والقوى الفكرية لقرد من القردة العليا ، اكبر من المسافة بين القوى الفكرية فى القرد وبينها فى الانسان .

٥ ــ الارتباط بين فكرة التطور والتقدم :

أهم المبادىء التى يبرزها العلماء التطوريون سواء البيولوجيون منهم والاجتماعيون اثنان :

مبدأ التغير .. ومبدأ التقدم .

ففكرة التطور تعنى أن الوضع الحالى انما هو نتيجة لتغير دائم من حالة أولية بسيطة اخذت ترتقى خلال عدة مراحل الى ان أصبح على ما هو عليه .

ومن هنا فان التغير كان دائما هادفا ، يتوخى الوصول الى مستويات أعلى وأرقى .

فالانسان هو أرقى الكائنات العضوية الحية . كما أن حياته الاجتماعية تتميز بعدد من النظم الراقية التى لا نظير لها عند الحيوانات الأخرى .

ولقد ربط سبنسر بالذات بين هذين المبدأين — مبدأ التغير ومبدأ التقدم — كما يربط بينهما اى عالم أو فيلسوف آخر من علماء التطور وفلاسفته . الى درجة انه ساوى بين المبدأين وذهب الى القول بأن أى تغير « هو بالضرورة تقدمى .. » .

* * *

ادلة التطور الحيوى :

تستمد نظرية التطور ادلتها من عدة علوم .

١ ــ علم التشريح المقارن :

يوجــد فى جميع الفقريات منطقة راس وجــذع وذيل واطــراف .

وتتشابه الأعضاء الداخلية لجميع الفقريات (الجهــاز الهضمى ــ التنفسى ــ الدورى) .

وينطبق نفس الكلام على المجمــوعات الأخــرى مــن الحيوانات كالديدان ، والمفصليات وغيرها .

ويرى التطوريون أن هذا التشابه يؤكد حقيقة التطــور اذ لا يمكن تفسيره الا بذلك .

٢ ــ علم الأجنــــة :

تشبه الاطوار الجنينية المبكرة للحيوانات المختلفة بعضها البعض الى حــد كبير ، اذ تظهر الصفات العامة بحيث لا يمكن الجزم فى هذه المرحلة بنوع الجنين ، ثم تظهر الصفات الخاصة فى أطوار لاحقــــة .

وهذا التشابه المبكر ــ فى رأى التطوريين دليــل على صحة نظرية التطـــــور .

٣ ــ أدلة علم التقسيم :

ذلك أن تصنيف الحيــوانات الى أقســــــام (الانواع والأجناس والعائلات والفصائل والرتب والشعب) يشبه الى حــد كبير فروع شجرة العائلة . فترتيب هــذه الأقسام يوحى بأنها نشأت بواسطة التطور ، كل من المرتبة التى سبقته .

وبالرغم من أن هذا التصنيف من صنع العلماء فان شجرته توحى بأن الكائنات قد اتبعت هذا الطريق أثناء نشوئها .

٤ ــ علم الحفــــريات(١) :

أستطاع علمــاء الحفريات أن يضعــوا سجــلا مرتبا لحفرياتهم ، يدل فى نظر التطوريين على وجود تعاقب يبـــدأ من كائنات بسيطة للغاية الى كائنات أكثر تعقيدا وتخصيصا .

كما أن هذه الحفريات تقدم لنظرية التطور دليـــلا جديدا اذ تظهـــر الحلقات الموصلة بين الأنواع ، والتى لا توجـد فى حيواناتنـــا الحاليــة ..

وهناك مجموعة من الأدلة الاخرى مستمدة من علوم

---

(١) الحفريات هى بقـــايا الحيوانات والنباتات القديمة محفوظة فى الصخـــور .

مختلفة ، من علم التوزيع الجغرافى للكائنات الحيـــة ، ومن علم وظائف الأعضاء ومن علم الوراثة .

وهــذه الادلة جميعا تستند فى جـوهرها الى قاعـــدة التشابه ، والترتيب .

اثر نظرية التطور الداروينية على الدين :

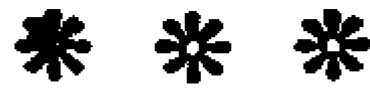
يقول الاستاذ يوسف كرم :

وقد اخذ على داروين أن نظريته مادية الحادية ـــ والواقع انه لم يشأ أن يستثنى الانسان من قانون التطور العـــام ، أو يعلق مسألة النفس الناطقة ، ويذهب الى أن الحياة النفسية فى الانسان كما فى الحيـــوان مرتبطة بفعل الأعضـــاء ، وقال بدراستها مـــن الدرجات الدنيـــا الى الدرجات العليـــا على هـــذا الاعتبـــــار . .

وقد كان مؤمنا بالله الى وقت ظهور كتابه « أصل الأنواع » وقال فى ختامه ان الصور الحية الأولى مخلوقة .

ثم تطور فكره شيئا فشيئا ، حتى أعلن أسفه لاستعمال لفظ « الخلق » مجاراة للرأى العام ، وصرح بأن الحياة لغــز من الالغـــاز ، وأن ما فى العالم من الم يعدل بنا عن القـــول بعناية الهية ، وانه « لا أدرى » لا يقول بالعناية ولا بالصدفة ،

وأن الكلمة الاخـــيرة عنده هى أن المسألة خارجـــة عن نطاق العقل ، ولكن بوسـع الانسان أن يؤدى واجبه .



نشاة الحيـــــــاة لاوبارين :

ان أعمال كل من داروين ولامارك كانت على الكائنات الحية أو المفترضة من حيث هى موجودة بالفعل على ظهـــر الارض وبقيت النقطة الاساسية دون حل وهى : كيف نشأت المادة الحيـــة نفسها التى تنوعت بعد ذلك الى انواع الحيـــاة المختلفـــــة .

واحـــدث النظريات فى هذا الموضـــوع جاءت فى كتاب « نشأة الحيـــاة على الارض » للعالم السوفيتى « الكسندر ايفانوفيتش أوبارين » مدير معهـــد باخ للكيمياء الحيوية التابع لأكاديمية علوم الاتحاد السوفيتى بموسكو وعضو الاكاديمية المـــــذكورة .

وقد ذاع صيته فى الأوساط العلمية المعاصرة فى العالم اجمع ، كمؤسس لنظرية نشأة الحياة على الأرض التى ضمنها كتـــابه المـــذكور .

بدأ اوبارين فى نشر آرائه منذ العشرينات من هـــذا

القرن ، وفى الثلاثينات نشر كتابه المذكور . ثم طرح نظريته فى الندوة الدولية التى عقدت برئاسته فى موسكو فى المدة من ١٩ الى ٢٤ اغسطس ١٩٢٧ م وقد حضرها اكثر من مائة عالم من شتى الدول ، ساهموا فيها ببحوث مبتكرة فى تدعيم نظرية اوبارين .

ثم أعاد طرح آرائه فى أول مؤتمر دولى لعلوم البحار والمحيطات عقد فى نيويورك فى عام ١٩٥٩ م

يعتبر الأثر الذى أحدثته نظرية أوبارين فى نشأة الحياة ، لا يقل شأنا عن الأثر الذى أحدثته نظرية داروين من قبل فى تطور الكائنات الحية . .

نظرية اوبارين :

وتتلخص نظرية اوبارين فى أن الحياة حالة من أحوال المادة ، وانها نشأت على الأرض وفقا للخطوات التالية :

١ ــ تطور المواد غير العضوية الى مواد عضوية اولية :

يفترض أوبارين أن المادة كانت ذرات متفككة فى جو النجوم الملتهب الى أن اصبحت تلك الذرات متحدة على شكل عناصر .

ثم تطورت العنا صر ، واخذ يتم التفاعل والربط بينها بواسطة الكربون ، وهو العنصر القادر على التداول فى

التفاعلات الكيمائية والاتحاد بذرات العناصر الأخرى لتكوين مركبات عضوية لا حصر لها ، حيث يتحد الكربون بالهيدروجين والاكسوجين ، ليكون المواد الكربوهيدراجية والنتروجين والفسفور ليكون مركبات أخرى لا حصر لها .

وقد كان الاعتقاد السائد فى القرن التاسع عشر هو أن المركبات العضوية المعقدة التى تصنع أجسام النباتات والحيوانات كالمواد السكرية والبروتينات والدهون لا يمكن تحضيرها فى المعمل أما اليوم فقد أمكن تحضيرها فى المعمل . .

٢ ـ تطور المواد العضوية الى البروتينات :

تستمر عمليات التفاعل والتركيب الى ان يتكون البروتين وهو مادة عضوية بالغة التعقيد والتركيب . ولكل نبات أو حيوان بروتيناته المميزة .

وعلى هذا الأساس توجد انواع لا حصر لها من المواد البروتينية .

لو خلطنا أنواعا مختلفة من البروتينات فى محلول ، للوحظ انفصال نقط خاصة من الخليط فى المحلول تتميز بنوع من التجمع والثبات .

مثل هذه النقط أو الأكوام من الجزئيات يطلق عليها أسم « النقاط التجمعية » وهذه النقاط تمتص بدورها ما قد يكون

ذائبا من مواد عضوية أخرى فى المحلول وتنمو ، أى يزداد حجمها ووزنهـــــا .

٣ ـ نشأة البروتوبلازم الحى :

يظهر البروتوبلازم ككتلة رمادية نصف سائلة تحتوى الى جانب الماء ، على البروتينات المختلفة ومواد عضــوية أخرى وأمــلاح معدنية ، وهو ليس مجرد تجمع أو خليط . ثم حسبما اتفق من تلك المواد ، وانما هو على جانب أعظم من التنظيم ، وأهم مميزاته أن له بيئة محدودة وترتيبا خاصا لجزئيات المواد المكونة له ، كما أن له خواصا كيميائية وطبيعية تنصاع لقوانين محـــــدودة .

ان البروتوبلازم ـ خــلافا للتجمعات الأولية ـ تملك خاصية الملاءمـــة بين التركيب الداخلى والبيئة التى وجدت فيها طبقا لقوانين بيولوجية جديدة لم تكن قائمة فى الأطــوار التى سبقت ذلك ، والتى كانت خاضعـــة فحسب لقــوانين ميكانيكية ، وفى هذا البروتوبلازم تكمن أول مظاهر الحياة .

٤ ـ ظهـــور الخلية الحية :

بظهور الكائنات الحية الأولى (البروتوبلازم) حــدثت القفزة الكبرى فى تطور المادة من اللا حياة الى الحياة (؟؟) .

واذا كانت هذه الكائنات ارقى بكثير من تركيب النقاط التجمعيـــة ، فهى فى نفس الوقت أدنى بكثير مـــن تركيب (الخليـــــة) .

لقد كانت تلك الكائنات الحية الأولى تعيش على جزئيات المواد العضــوية الأخرى الموجودة فى الماء . وبمرور الوقت قلت تلك المــواد العضوية وكان على هــذه الكائنات اما أن تفنى ، أو تجد لنفسها طريقة لبنــاء المواد العضوية المعقدة من المواد البسيطة المتاحة لهــا ، من ثانى أكسيد الكربون والمـــــــاء .

وحدث أن امتصت بعض الكائنات الطاقة من الشمس ومن ثم نشأت عملية البناء الضوئى ، فظهرت أبسط النباتات المعروفة وحيــدة الخلية (الطحالب الزرقاء) ، وظهــرت الحيوانات القديمة بسيطة التركيب وحيدة الخلية قريبة الشبه بالبكتريا والأميبـــا .

٥ ــ عمر هـــذا التطور :

يرى أوبارين أن الأرض ظلت أربعـــة أخماس عمرها ، أى خلال مدة تقرب من أربعة آلاف مليون سنة خامدة ، وكان تطــور المادة خلال هــذه المدة المذكورة بعمليات غير حيوية بطيئا للغاية .

ثم ظهرت بعد ذلك النقاط التجمعية ، ثم انقضت ملايين السنين بعد ذلك حتى ظهرت الكائنات الحيــة الأوليــة . ثم ظهرت عملية البناء الكلوروفيلى . ثم فى المليون سنــــة الأخيرة ظهر الانسان . وظل بدائيا لمدة طويلة . وفى خـــلال عشرات القــرون الأخيرة فقط ظهر التطور الاجتمــاعى . . للانســــــان . . .

نقد نظرية التطور

هذا النقد يأتى من ناحيتين :

١ ـ ناحية عامة تشترك فيها هذه النظرية سواء عند داروين أو أوبارين ـ مع النظريات الأخرى التى تحاول أن تتخذ من العلم التجريبى سندا لرفض المعرفة الالهية أو الميتافيزيقية وذلك حيث تقوم على « الاعتقاد » بأن المادة أصل الأشياء ، وأنها ـ أى المادة ـ علة لذاتها ، وأن اكتشاف قوانين للطبيعة يتعارض مع الاعتقاد بوجود الله .

وقد بينا فى المبحث الخاص بالدين والعلم انحراف المذاهب المادية عن العلم فيما تذهب اليه من انكار الغيبيات ، أو المطلقات ، أو انكار الارادة الالهية .

ومع ذلك ، فانه من الممكن الأخذ بفكرة التطور المحدود التى لا تتعارض مع الايمان بالله .

يقول الأستاذ يوسف كرم :

(وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين الى الاقــــرار بموجد للمـــادة ، موجـــه لهـــا ، لقصور المـــادة عن تنظيم نفسهــــــــا(١) ..

بل ان فكرة التطـــور ـــ بعد تهذيبها تضيف الى رصيد الايمان بالله ، ولا تأخـــذ منه ، وذلك حيث ترسم للمـــادة طريقا منظما صاعدا من الأدنى الى الاعلى ، تستهدف فيـــه الوصول الى الغاية ، فمن ثم تستلزم وجـــود المدبر المنظم ، وهو امر لا يكون للمادة بأى حال ، وانما يكون لذات الله ..

ان هذه النظرية تفـــرض :

أولا : التقدم ، والتقدم لابد ان يكون له غاية مرسومة والنظرية لا تقـــدم هـــذه الغـــاية .. اما الدين فهـــو الذى يقـــــــدمها .

ثانيا : فان التقدم الذى تفرضه هذه النظرية يعنى النقص فى المتقدم . والناقص محتاج الى غيره ، والدين هو الذى يقدم لنا الله الغنى الذى يتجه اليه كل محتاج ...

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم ص ٣٤٢ .

يقول الأستاذ الدكتور / يوسف عز الدين عيسى :

ان الخطأ الرئيسى الذى وقع فيه جميع هؤلاء العلماء هو انهم تجاهلوا وجود خالق مبدع جبار هو الذى خلق هذا الكون وأبدعه . فقد تكون الحيوانات انحدرت من حيوانات سبقتها وتطورت وارتقت ، ولكن ما هى القوة التى تقف وراء ذلك كله وتحركه فى دقة مذهلة وقوة جبارة نحو هدف معين فيه ارتقاء وكمال ؟..

انه بلا شك خالق هذا الكون الذى تعجز عقولنا عن ادراك مبلغ قدرته وعظمته مهما تخيلناها ...

فتطور الكائنات لا يفسر بمثل هذه الاعتراضات وهذه التكهنات ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال ان يكون نتيجة صدف عشواء تتخبط فى الظلام .

ولقد اقترب العلماء الآن كثيرا من التسليم بوجود خالق الكون ، سواء شعروا بذلك أو لم يشعروا .

... فالقول الذى يصر عليه جراهام كانون ، بأن فى كل كائن حى قوة تدفعه للسير والتطور نحو هدف معين ، يعنى بلا جدال وجود قوة الهية وراء هذه العملية ..

٢ ـــ ويتوجه النقد الى نظرية التطور من الناحية الخاصة بها فى النقاط الخمس التالية :

أولا : ان البحث العلمى الحديث اثبت خطأ النظرية .

ثانيا : أنها تقوم على عدد من الافتراضات غير المكونة علميـــــا ..

ثالثا : أنها تقوم عى القول بالصدفة ، فى أهم مراحل التطور ، وهو قول لا يسيغه العلم أو الدين على السواء .

رابعا : ان الأدلة التى تقوم عليها تستند الى فكرتى التشابه والترتيب بين الأطوار ، وهـــو قـــول لا يؤدى ـــ بالضرورة ـــ الى وجود علاقة ذاتية بين هذه الأطوار .

خامسا : انه مـــع التسليم بصحة الافتراضات التى قامت عليها النظرية فهى لا تقتضى الغاء الارادة الالهية(١) . ويبقى فيها مكان خاص لنظرية الخلق الخاص بالنسبة لبعض الأنواع (الانســـــان) .

وسنتكلم عن كل نقطة من هذه النقاط بشىء من التفصيل فيمـــــا يلى :

---

(١) أنظـــر المبحث الخاص الذى قدمناه عن العلاقة بين القانون والارادة الالهيـــــة .

أولا : أثبت البحث العلمى الحديث خطأ نظرية التطور فى أهم جوانبها .. ونجد ذلك عندما يسمى بالدارونية الجديدة أو التركيبية الحديثة .

وقد استعمل اسم الدارونية الجديدة لأول مرة لآراء العالم الألمانى فايزمان ، الذى نشر أبحاثه فى هـذا الموضوع من عام ١٨٦٨ الى ١٨٧٦ م .

ثم اقترح بعض العلماء عدم استعمال هـذه التسمية لتجنب الارتبـاك . فاستبدل بهـا اسم النظرية التركيبية الحديثة . وهى ليست من عمل عالم واحد ، كما أنها لم تنشأ فى صورة كاملة وانما تطورت ببطء خلال الأربعين عاما الاخيرة وما زالت حتى الآن تنمو فى اطراد ومن النتائج الهـامة التى توصلت اليها الداروينية الحديثة :

١ ــ ان التطور لايحدث بنفس السرعة فى الأنواع المختلفة من الكائنات الحيـة .

فالسلحفاة ــ مثلا ــ ظلت بدون تغيير يذكر لمدة تقدر بحوالى ١٧٥ مليون سنة بينما نشأت ثم انقرضت عدة أنواع من الجنس البشرى فى أقل من نصف مليون سنة .

٢ ــ ان التطور يحدث فى بعض الأزمنة بسرعة أكبر من حدوثه فى ازمنة أخرى ، وذلك بالنسبة للنوع الواحد .

وتعليقنا على هاتين النقطتين ان نقول :

انه لما كان العلم لا يقدم تفسيره لذلك فان الرجـــوع الى مبدأ الارادة الالهية يصبح هو التفسير الوحيد .

٣ ــ ان التطور لا يكون دائما الى كائنات اكثر تعقيدا وهى القاعدة الأساسية فى كل نظـــريات التطور ، اذ توجد بعض الأمثلة لتطـــور ارتدادى فمثلا ، قد انحـــدرت معظم الطفيليات مثل الاسكارس والبلهارسيا من أسلاف كانت تعيش معيشة حرة ، وأعضاؤها أكثر تعقيدا وتعليقنا على ذلك ان فكرة التقدم والانتقال من البسيط الى المركب هو اساس لكل نظرية تحاول التملص من الاعتراف بوجود العناية الالهية ، وبانهدام هذه الفكرة ــ علميا ــ ينهار أساس النظرية .

٤ ــ تذهب نظريات التطور الحديثة وعلى راسها نظرية دارون الى أن الانسان تطور من مخلوق بدائى له سمات أقرب الى سمات القـــردة العليــــا .

وان اقدم أصل للانسان ككائن منتصب القامة يرجع الى نحـــو مليون سنـــة فقط حيث يلتقى فى هـــذه الفترة بأصله المشـــــــار اليه .

لكن هناك اكتشافا أعلنه أخيرا الدكتور ريتشارد ليكى ــ مدير المتحف الوطنى فى كينيا فى نوفمبر ١٩٧٢ أمام الجمعية الجغرافية الوطنية . عن بقايا جمجمة بشرية يرجع تاريخها

الى مليونين ونصف مليون سنة ، وعن عظام ساق ترجع الى تلك الحقبة ذاتها .

وهذا دل على أن الكائن البشرى المنتصب القامة الذى يسير على ساقين اثنتين كان معاصرا للسلالة الشبيهة بالقردة وليس منحدرا عنها .

واذا صح هذا الاستنتاج ، فانه يؤدى الى هدم نظرية التطور الداروينى من أساسها ويدعم نظرية الخلق المستقل .

ثانيا : مذهب داروين يقوم على افتراضات :

يقول الأستاذ عباس العقاد :

اذا رجعنا الي مكان مذهب التطور من العلم ، لم نجد من يحسبه علما قاطعا مفروغا من أصوله وفروعه .

واكبر أنصاره لا يدعى له أكثر من أنه صحيح في بعض ملاحظاته ومقارناته .

ويجوز بعد ذلك أن يكون التطور قد حصل فى جهات عديدة لا فى جهة واحدة . وان يكون ملازما للارتقاء ، وأن كانت شواهد الارتقاء اكثر من ظواهر النكسات .

ويقول الأستاذ وحيد خان :

ان محامى نظرية الارتقاء لم يتمكنوا حتى الآن من تمكيننا من مشاهدة أو تجربة اى أساس تقوم عليه مزاعمهم .

فعلى سبيل المثال : ليس بوسعهم أن يثبتوا لك بالرؤية المباشرة فى معمل ما ، كيف توجد الحياة من مادة لا حياة فيها ...

وهكذا لم يخضع أى تغيير من نوع الى نوع آخر لتجربة أو مشاهدة من أى انسان .. فلم يحدث ان اجريت تجارب فى احدى حدائق الحيوانات ، فخرجت الزراف من بطون الشياه ! ولقد عبر آرثركيث عن رأيه فى نظرية الارتقاء بأنها « **العقيدة الاساسية فى المذهب العلمى** . » ولم يقل بأنها حقيقة علمية ، وكذلك عرفت موسوعة علمية نظرية الارتقاء (بأنها نظرية قائمة على تفسير بدون براهين ..) .

اما اوبارين فقد قامت نظريته على افتراض ظهور « الحياة » لمجرد تطور التجمعات الى البروتوبلازم .

والتدليل على صحة هذا الفرض ــ على أساس المنهج العلمى سيكون بتحقيقه علميا . فهل فعل أوبارين ذلك ؟.

لقد بدأ أوبارين واثقا من اجراء هذه التجارب المعملية ،

فى أهم أنماط هذه النظرية الخاص بظهور الحياة . فهو يقول فى ختام كتابه الذى بسط فيه نظريته (ان النجاح الذى حققته علوم البيولوجيا السوفيتية حديثا تؤيد « الوعد » بأن مسألة خلق كائنات حية بسيطة بطرق صناعية ليس ممكنا فحسب بل سيتحقق عما قريب . .) .

ولكنه تراجع عن ذلك :

يقول فى بداية بحثه الذى القاه فى المؤتمر الدولى للبحار فى نيويورك فى عام ١٩٥٩ . (ان جميع المحاولات التى أجريت لتوليـــد الحياة من المـــواد غير العضـــوية سواء تحت ظروف طبيعية أم المعمل قد باءت بالفشل) .

ثم يبـــدو بائسا معتذرا عن فشله فيقول ايضا فى نفس العام : « ان الظروف الطبيعية والكيميائية التى سادت على الأرض فى معمل الطبيعة العظيم ـــ قبل ظهور الحياة ـــ والتى تمت فيها التفاعلات المعقدة التى أدت الى ظهور تلك الحياة ، يختلف تماما عن الظروف السائدة الآن . ومن ثم فمن غـــير المحتمل ان لم يكن من المستحيل أن تتم نفس هذه العمليات فى المعمل ، وان تمت فالى حد معين فقط » .

واذن فكما يقول الأستاذ وحيد خان :

انه اذا كان لأصحاب نظرية التطور أن يعتمدوها بالرغم

من هـــذه الفرضيات التى لم تخضع للبحث التجريبى بناء على أخذهم بمبدأ ان العلم لا ينحصر فى الوقائع التى يمكننا تجربتها مباشرة ، وانما يعتبر ان أية قرينة منطقية تستند الى تجارب ومشاهدات غير مباشرة يمكنها أيضا أن تصبح حقيقة عملية بنفس درجـــة الحقائق العلمية التى نتمكن من مشاهـــدتها مباشرة . وعلى هـــذا الأساس لا غير تم اعتراف العلـــم بالالكترون ، على أنه حقيقة علمية بالرغم من أنه لا يخضـــع للمشاهدة ، نظـــرا لتناهى وجوده فى الصغر بحيث لا يمكن لمنظار مشاهدته ، ولا يمكن لميزان ما وزنه ، كما تم اعترافه بظواهر مماثلة أخرى على أنها حقائق علمية .

اذا كان الأمر كذلك فان الحقائق الدينية يمكن أن تدخل فى مساحة العلم على نفس هذا المنوال .

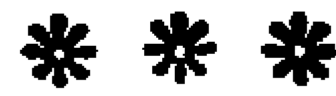
يقول البروفيسور ماندير فى شرحه لأسباب قبول نظرية الارتقـــــــــــاء :

أولا : هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

ثانيا : فى هـــذه النظرية تفسير لكثير من الوقائع التى لا يمكن فهمها الا عن طريقهـــا .

ثالثا : لم تظهر بعـــد نظرية تناسب وتوافق الحقائق بهـــذه الدقة ...

ويعلق الأستاذ وحيد خان على ذلك فيقـول : (فاذا كانت هذه الأدلة كافية لجعل نظرية الارتقاء حقيقة مقبولة ، في ضوء مقاييس الاستدلال العلميـة فان هذه الأدلة نفسها موجودة كذلك في جانب الدين بصورة أشد وأكمل . وفي هـذه الحالة يعجز العقل الحديث عن تبرير رفضه للدين ــ باعتبار أنه غـير قابل ولو لمجرد البحث العلمي ، مع تكافؤ الأدلة بين نظرية الارتقاء والدين كليهما .



ثالثا ــ من ناحية الصدفة :

في العلم التجريبي يسلم العالم بمبدأ الحتمية ، ويستبعد المصادفة والاتفاق ، لأن الظواهر ضرورية وليست ممكنة .

ومع ذلك فقد تورط مذهب التطور في الصدفة لينسج نظريته بها في أهم محاور المذهب .

أولا : في الحركة الأولى التي حدثت مادة في حـالتها الأولية الراكدة .

ثانيا : في ظهور الحياة في البروتوبلازم .

ثالثا : في ظهور الانسان بتكوينه المشتمل على العقـل وعلى الجهاز البدني شديد التعقيد .

يقول الدكتور يوسف عز الدين عيسى :

لا يمكن أن نتصور بأى حال من الأحوال ، أن جهـــازا دقيقا معقدا أشد التعقيد متناسقا كالمخ قد تكون من تلقـــاء نفسه نتيجة للصدفة العمياء ..

ولو نظرنا الى طرق التنفس مثلا فى الحيوانات المختلفة على اختلاف درجاتها ابتداء من الأميبا ، ذلك الحيوان البسيط المكون من خليـــة واحدة ــ الى أن نصـــل الى الانسان أرقى الحيوانات ؛ لوجـــدنا أن عمليات التنفس هذه تتم بطـــرق وأجهـــزة مختلفة ، ولكنها جميعا تنتهى الى نفس النتيجـــة ، وهى أكسدة المواد الغذائية وانطلاق الطاقة التى يستخدمها الحيوان فى أوجه نشاطه المختلفة .

وعندما نقول ان الطيور لكى يخف وزنها ، كونت فى عظامها أكياسا هوائية ، فهو قول يدعو الى الضحك . اذ أن الطائر ليست لديه القدرة على تغيير تركيبه ، ولا يمكن أن يقوم باحداث هذا التغيير الواعى سوى القدرة الالهية ..) .

وهذا فى حد ذاته كاف لكى يجعل من مذهب التطور الذى قدمه داروين وأتباعـــه وأوبارين وأتبـــاعه مذهبـــا « اعتقاديا » لا أساس له من العلم الصحيح .

* * *

رابعا : قاعدة التشابه والترتيب :

ان ادلة التطور الحيوى المستمدة كلها من علم التشريح المقارن ، وعلم الأجنة وعلم التقسيم ، وعلم الحفريات ، ترجع كلها الى قاعـدتين : التشابه ، والترتيب ، وهما لا يؤديان بالضرورة الى الاعتراف بوجود علاقة ذاتية بين الأطوار ، بل على العكس من ذلك ، يؤيدان موقف الدين فى تفسـيره لكل منهما بوجود ارادة الهيـة عليا .

١ ـ فمن حيث قاعـدة التشابه :

(يقول الدكتور يوسف عز الدين عيسى) :

(ان تشابه الحيوانات فى الاطار الاساسى لتكوينها يدل على وجود أسلوب واحد للخلق يبدعه خالق واحد) .

فعين القطة مثلا لا تختلف فى تكوينها عن عين البقرة او الأرنب أو الانســان .

وكذلك الجهـاز الهضمى والعصبى والغـدد الصماء وغـيرها من الأعضاء فى شتى أنواع الحيوان تدل على وجود أسلوب واحد للخلق . تماما كما يقرأ الانسان بعض صفحات من كتاب أحد مشاهير الكتاب فيستدل عليه من أسلوبه .

٢ ـ من حيث قاعـــدة الترتيب :

يقول الأستاذ وحيد خان : « ان نظرية الارتقاء لا تثبت شيئا أكثر من ان الأنواع المختلفة لم توجـد فى وقت واحد ، بل وجدت انواع مختلفة فى مراحل مختلفة ، ان هنـــاك ترتيبا زمنيا فى الأنواع الحية ، أى أن الانواع البسيطة للحياة وجدت قبل الأنواع الحية المعقدة . والامر الذى لا يزال غير ثابت بكل قطعية هو : هل الأنواع الحية المعقدة هى ـ حقيقة صور راقية للأنواع البسيطة التى وجدت فى الزمن السحيق ثم تطورت تلقائيا الى صورها الحالية نتيجة للعمل المادى الطويل أم انها ليست كذلك ؟.

ان المشاهدة تؤكد الجزء الأول(١) ..

اما الجــزء الثانى من نظــرية الارتقـــاء(٢) ، فلا يزال افتراضا محضا ، اختلقه العلماء الذين آمنوا بتلك النظرية ، وهذا الجزء الافتراضى من نظرية الارتقاء لا يمكن مشاهدته تحت اى ظــرف من الظروف ، كما انه غـــير قابل للخضوع

---

(١) يعنى وجود ترتيب زمنى يقول بوجود البسيط قبل المركب . وقد رأينـــا فيما سبق أن الداروينية الحديثة تنكر أطراد التقدم من البسيط الى المعقد أيضا .

(٢) وهـــو القول بأن النوع المعقد نشأ عـــن النوع الســـابق له .

للتجارب بأى شكل من الأشكال ، هـذا بينما يتوقف جـواز الاستدلال بنظرية الارتقاء على ثبوت هذا الجزء الثانى منها فقـط » ..

خامسا : انه مع التسليم بصحة الافتراضات التى تقوم عليها نظـرية التطور من حيث وجـود تشابه ، وترتيب بين الأنواع فان ذلك لا يقتضى الغاء الارادة الالهية .

ا ـ ان الذين ينكرون الخالق بناء على نظرية التطور يتصورون ان الخالق ليس فى امكانه أن يوجد مخلوقاته بترتيب ونظام سابقين فى زمن طويل .

وهذا التصور خاطىء سواء ثبتت نظرية التطور أو لم تثبت(١) .

يقول الأستاذ وحيد خان : « لا يزال الانسان منذ آلاف السنين يؤمن بأن خالقه وخالق الشجر هو الله القـادر المطلق ، مع انه ظل طوال هذه القرون الطويلة يشاهد الطفل يصبح رجلا كاملا بعـد أربعين سنة من ولادته ، والشجر العملاق يكتمل عوده بعـد قرن أو نصف قرن من الزمان ، ولكن هذه المشاهدة لم تزلزل من ايمان الانسان بأن الله هـو

---

(١) انظر ما ذكرناه فى المبحث الخاص بعلاقة القانون بالارادة الالهيـة .

القـــادر المطلق ، فعقله لم يوجب ـــ أبدا ـــ أن يكون الله « الخالق القادر المطلق » يستلزم ظهور الانسان والشجر فى اشكالهما الكاملة مرة واحدة . وهكذا فان كشوف المستقبل ، حتى لو اثبتت أن مظاهـــر الحياة انما ظهرت الى الوجـــود نتيجة لخضوعها لعمل تطورى طويل الأمد ، فان ذلك الاثبات ـــ الذى لم يتوافر حتى الآن ـــ لن يبطل قضية الدين ، ولن يستلزم اعادة النظر فيها ، ذلك لأن هذا الاثبات المفترض انما يتعلق بأسلوب الله فى الخلق ، ولا يفسر لنا ما هيـــة الخـــالق » .

لقـــد جاء فى الموسوعة الكاثوليكية فى مادة الخلق أن حقائق العلم وحقائق الوحى فى هذا الموضوع لا تتناقضـــان .

وقال اللاهـــوتيون : أصحاب كتاب العلم وما فـــوق الطبيعة : بأن العلل الثانوية التى تبـــدو فى أعمـــال الطبيعة لا تبطل العلة الأولى التى تنتهى اليها جميع العلل وتقف عندها جميع المقاصد والغايات(١) .

ويقول الأستاذ يوسف كرم : وقد نسلم بالتطور ، ثم نرانا مضطرين الى اعتبار الانسان نوعا قائما بذاته بسبب ما يختص به من علم وفن وصناعة وخلق ودين ، وهى مظاهر العقل لا نظير لها ولا أصل فى سائر الحيوان .

---

(١) أنظر عقائد المفكرين فى القرن العشرين للأستاذ عباس العقـــاد ص ٥٨ .

٢ ـــ وما دام ان هذه النظرية كما بينا لا تلغى بالضرورة الارادة الالهية ، فانه يبقى فيها مكان خاص لنظرية الخلق الخاص ، بالنسبة لبعض الانواع على الاقل ـــ اذا وردت بذلك الأخبار الصحيحة .

ولا شك أن الأخبار الصحيحة قد جاء بها القرآن الكريم فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام ، وما ورد فى القرآن بهـــذا الخصوص لا يترك احتمالا ـــ فى رأيى ـــ لادخـــال آدم عليه السلام فى سلسلة التطور التى نسجتها افتراضات نظرية التطور . وذلك للأسباب الآتية :

اولا : ان ما ذكره القرآن الكريم عن ملابسات خلق آدم يحتم القول بظهوره مستقلا وليس على مراحل من الظهور فى الانواع المختلفـــة .

وهذا ما يقتضيه دعوة الله تعالى ملائكته للسجود لآدم اثر خلقـــه اياه يقول تعالى :

(واذ قال ربك للملائكة انى خـــالق بشرا من صلصال من حما مسنون . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين ..) . (سورة الحجر : ٢٨ ـــ ٣١)

والنصوص القرآنية الواردة فى نفس هذا المعنى كثيرة انظر الآيات ١١ ، ٣٤ من سورة البقرة .

والآيات ٦٠ وما بعـدها من سورة الاسراء ، والآيات ٤٩ وما بعدها من سورة الكهف والآيات ١١٥ من سـورة طـه عى سبيل المثال .

ثانيا : ان ماذكره القرآن عن آدم يقتضي ظهوره وهـو فى أعلى مراحل النضج البشرى لا كونه فى أدنى هذه المراحل كما تقتضى بذلك نظرية التطـور ، وذلك ما يدل عليه قوله تعالى : **(واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفـة قالوا أتجعـل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمـائهم فلما أنباهم بأسمائهم قال ألم أقـل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .**

(٣٠ ــ ٣٣ سورة البقرة) .

ثالثا : ان ما ذكره القرآن عن خلق آدم يقتضى ظهوره ــ لا على نحو يتفق مع السنن العادية ــ كما تقضى بذلك نظرية التطور ان صحت ، وانما على نحو خارق لهذه السنن وهـذا ما يدل عليه قوله تعالى :

(ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال

له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين ٠٠) .

(٥٩ ـــ ٦٠ سورة آل عمران)

وبما أن سيدنا عيسى عليه السلام قد خلق من غير أب بطريقة خارقة للعادة ، وأن الآية تقرر أن خلق آدم مثله ، فان النتيجـــة الحتمية لذلك أن خلق آدم تم بطريقة خارقـــة للسنن العـــادية .

* * *

محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة

* * *

دار العلوم للطباعة

القاهرة ٨ شارع حسين حجازى - قصر العينى

ت. ٣٥٥١٧٤٨٠

رقم الايداع : ١٥٩٥ / ٨٠

الترقيم الدولى ٠ — ٥١ — ٧٣١٨ — ٩٧٧

هـذه الرسالة

الفكر الالحادى المعاصر يرتدى زى « العلم » ، ويتسلح بسلاح « المادة » فى معركته مع « الدين » . ولم يستطع حتى الآن بدليل علمى واحد أن ينفى وجود « الله » . والعجيب أن الالحاد فى معركته مع الدين ، لم يبرأ من اعتناق نوع من « الدين الزائف » .

وهذه الرسالة تكشف هذا التناقض ، بين ما يتصف به الفكر الالحادى المعاصر وما يدعيه . فقد سلم العلم المادى نفسه ، بمسلمات لا يشترط البرهنة عليها ، وبوجود غيبى غير خاضع للادراك المباشر أو غير المباشر ، الى غير ذلك من المبادىء التى يأخذها على الدين .

